هرمس في دوائر المعارف والموسوعات
وكتب الأعلام والميثولوجيا
العربية والعالمية

جاء في دائرة المعارف الإسلامية ـ الترجمة العربية تحت مادة «إدريس» مايلي:

«إدريس» : اسم نبي ورد ذكره في القرآن مرتين : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ سورة مريم الآية 75 ومابعدها .

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : 58] وليس في هذه الآيات مايميط اللثام عن هذه الشخصية . وظل هذا الاسم مدة طويلة لغزاً عند المستشرقين حتى جاء نولدكه فرجح أنه هو «أندرياس» ج17 ، ص 84 ومابعدها) . وزعم «هارتمان» (المجلة نفسها ، ج24 ، ص 314 ومابعدها) بحق أن أندرياس هذا الذي رفع مكاناً علياً ليس إلا طاهي الإسكندر ، ذلك الطاهي الذي كتب له الخلود . ويذهب مؤلفو المسلمين إلى أن أندرياس هذا هو أخنوخ المذكور في التوراة ، وهو شخص كتب له الخلود أيضاً كما تذهب القصص ، أو دخل الجنة حيا كما تذكر المصادر اليهودية . ومايضيفه كُتَّاب العرب المذكورون إلى إدريس إنما يرجع بنوع خاص إلى مصادر يهودية متأخرة غير موثوق بها . ولأخنوخ المذكور في التوراة ثلاث صفات بارزة توجد أيضاً في القصص الإسلامية المصوغة على مثال قصص اليهود (سفر التكوين ، الإصحاح الخامس ، الآية 23 ـ 24) .

وهي : 1 ـ ورعه ، 2 ـ تعميره 365 سنة على الأرض ، وفي هذا مايشير إلى أنه كان بطلاً من أبطال الأسطورة الشمسية 3 ـ رفعه إلى السماء . واسم «أخنوخ» نفسه ـ الذي توحي حروفه معنى «الملهم» ـ قد أثر في تكوين القصص التي حيكت حوله .

أما فيما يتعلق بهذه المسألة الأخيرة فإن إدريس يبدو في المصنفات الإسلامية ملهماً بالعلوم والفنون ، فقد كان أول من خط بالقلم ، وأول من حاك الثياب وارتداها وكان الإنسان قبله يرتدي الجلود . فهو إذاً «راعي» الخياطين ، وأحد الرعاة السبعة اللذين يرعون النظام النقابي . وكان كذلك أول من عرف الطب ونظر في علم النجوم وحساب السنين والأيام ، أما من جهة الورع ، فقد كان أول من امتطى الفرس للجهاد في سبيل الله ضد أحفاد قينان المفسدين . ومن جهة النبوة ، كان أول من نزل عليه جبريل الوحي . ويروى أن ثلاثين صحيفة أوحيت إليه على هذا النحو ، ويمكن الرجوع إلى تاريخ ابن القفطي خاصة (طبعة لير ، ص 1 ومابعدها) إذا أردنا أن نتتبع أعماله باعتباره نبياً وملكاً . وسمي إدريس لغزارة علمه بما نزل من الوحي قبله ، وهو

علم توصل إليه بالدرس الكثير، ولكن دراية البيضاوي بفقه اللغة العربية جعلته ينكر اشتقاق إدريس من الدرس، ولو أن هذا الاشتقاق ممكن في أخواتها من اللغات. ولابد أن ورعه قد أثار إعجاب الملائكة، فقد سأل ملك الموت الله أن يزور إدريس، فجاءه على صورة إنسان ودعاه في الليل إلى مائدته، ولكن إدريس أبى، فكرر ملك الموت دعوته تلك مرتين متتاليتين. وفي المرة الثالثة سأله إدريس عن شخصه، فلما أجابه طلب إليه إدريس أن يقبض روحه فقبض ساعة من الزمن، ثم استرده مرة أخرى، ثم طلب إليه كذلك أن يرفعه إلى السماء ليراها ويرى الجنة. فلما بلغ الجنة أبى أن يخرج منها وتعلق بنخلة واعتصم بآيتين من القرآن أولهما «كل نفس ذائقة الموت»، وقد ذاقه من قبل، «والثانية وماهم منها بمخرجين» ولذلك فقد تشبث هو بالبقاء في الجنة فأبقاه الله فيها، وسيعود منها إلى الأرض ثانية وكما يعيش هو وعيسى في السماء خالدين، يعيش الخضر وإلياس خالدين في الأرض.

والذي يجعل إدريس في هذه القصة بطلاً من أبطال الأسطورة الشمسية هو أن روحه قبضت عند مغيب الشمس. ونجد في رواية أخرى لهذه القصة عدة نواح تشير إلى صلته بالأسطورة الشمسية. ففي ذات يوم أثناء رحلة له اشتدت عليه حرارة الشمس فسأل الله أن يخفف وطأتها رحمة بالذي يطوي كل يوم رحلة قدرها خمس مئة سنة تحت هذه الحرارة (يعني ملك الشمس). وسأل إدريس هذا الملك أن يؤخر أجله، فحمله هذا الملك نحو مشرق الشمس وأبلغ سؤله ملك الموت، ولم يستطع هذا الأخير أن يجيب سؤاله، فأطلعه ملك الشمس على يوم موته، ولما فتح ملك الموت ديوانه لم يجد فيه وفاة إدريس ففسر الملك ذلك أن وفاة إدريس يجب أن تكون عند شروق الشمس، وقد وجده ملك الشمس ميتاً بالفعل عندئذ. ومع ذلك فإن إدريس خالد لايموت، ومعنى ذلك ـ لو عبرنا عن الأسطورة الشمسية باللغة الجارية ـ أن الشمس تموت كل يوم وتحيا. أي أنها خالدة. ومازالت ناحية أخرى من نواحي صلة إدريس بالأسطورة الشمسية ماثلة للأذهان في تفسير «المكان العلي» الوارد في الآية 57 من سورة مريم. بأنه فلك الشمس.

ويجعل أيضاً إدريس عن إلياس والخضر. ويقال إن اليونان عرفوه باسم هرمس. أو كما يقول ابن العبري (تاريخه طبعة بوكوك ص9) هرمس الهرامسة المثلث بالحكمة. وقد وردت معلومات وافية عن هذه الموضوعات في تاريخ ابن القفطي. وتتفق الروايات الإسلامية مع بعض الآيات الواردة في سفر الرؤيا، في أن إدريس قد مر بجهنم.

ويعلق محمد فريد وجدي على مادة «إدريس» الواردة في الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية بما يلي:

ورد ذكر أنبياء كثيرين في القرآن الكريم ولكن ليس على سبيل الحصر ولا التاريخ ولكن على سبيل الوعظ بأحوال الأولين والتنبيه على سنن الله في الأمم أجمعين، فقد ذكر الله تعالى أنه لم يَحرم أمة من رسول فقال «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» وصرح بأنه ذكر بعضاً منهم وأغفل بعضاً، فقال تعالى: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ وبيّن في أكثر من موطن أن أولئك الأنبياء والرسل كانوا رجالاً كسائر الرجال، وإنما خُصّوا بالوحي لتعليم الناس وإرشادهم، فقال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ وقال في خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد» وقد كافح القرآن كل ميل كان في الناس لتأليه أنبيائهم أو الغلو في تنزيههم، وقرر الأصوليون عندنا أن الأنبياء منزهون عن الكبائر دون الصغائر التي تبدر منهم بحكم بشريتهم، فيتبعونها بما يمحو أثرها من استغفار أو صلاة أو أية قربة من القربات. كانت التوراة مورداً تستمد منه تواريخ كثير من الأمم التي كانت معاصرة لبني إسرائيل، ولذلك جاء الكلام عنها مطبوعاً بطابع الإسرائيليات، وقد سرى إلى مؤرخينا شيء من الإسرائيليات، وخاصة فيما يتعلق بتاريخ الأنبياء وقد نصح نقدتنا بوجوب الحذر الشديد من الثقة المطلقة بهذه الروايات، ومهما كانت الأحوال فإن القرآن لايلزمه شيء من هذه الإسرائيليات، ولو نقلها بعض المسلمين في تفاسيرهم للكتاب، فإن القرآن ذكر النبوة والرسالة وبين أنهما مرتبتان بشريتان لاتقتضيان لمستحقيهما الارتفاع إلى درجة الألوهية، ولاتخرجانهما عن دائرة الحالات الإنسانية، حتى قرر أن الأعمال الخارقة لاتصدر منهم إلا بإذن من الله لهم فهي ليست ذاتية فيهم.

والمسلم مكلف، إنْ نظر في تواريخ الأنبياء أن يتبع الأسلوب القرآني من التمحيص والتحقق والبعد عن الظنون، إلا مانص الكتاب على أنه معجزة فتلك يعزوها إلى قدرة الله التي لايعجزها شيء في الأرض ولا في السماء.

بعد هذه المقدمة نقول إن المسلم لايهمه أن يعرف من أمر إدريس أكثر من أنه كان صدِّيقاً، وأنه كان من الصابرين، وأن الله رفعه مكاناً علياً كما ذكر عنه في الكتاب، فأما ماوراء هذا مما ذكره المفسرون من أنه كان سبط شيث، وجدّ أبي نوح عليه السلام، وماذكره المستشرقون من أن إدريس هو أندرياس الذي كان طاهياً للإسكندر أو أنه أندرياس المذكور في التوراة وأنه عمَّر أكثر من ثلاث مئة سنة، فكل هذا لايلزم القرآن منه شيء، وإن ماقاله مفسر فإنه يفعل ذلك باسم التاريخ لاباسم القرآن ولاباسم الدين، ولذلك فهو يعقب على مثل هذا بقوله: والله أعلم.

والذي ينظر في كتب المسلمين يرى هذا الأسلوب ماثلاً فيها في صورة لايمكن الاشتباه فيها، فخذ مثالاً لذلك ماكتبه العلامة البيضاوي في تفسير آية إدريس، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ يعني شرف النبوة والزلفى عند الله وقيل الجنة وقيل السماء السادسة والرابعة.

فانظر كيف فسر الكلام الإلهي بما يتبادر إلى الفهم منه لأول وهلة، ثم لم يرد أن يوصد الباب في وجه أصحاب الآراء المختلفة فذكر أن بعضهم فسر مكاناً علياً بالجنة وبعضهم بالسماء، ولكن لاحظ أنه ذكر هذه الآراء بصيغة تدل على ضعف القول، وأثبت الأول بصيغة التحقيق.

يقول كاتب الفصل الذي نرد عليه من هذه الدائرة أن لأخنوخ المذكور في التوراة ثلاث صفات بارزة توجد أيضاً في الأقاصيص الإسلامية المصوغة على مثال الأقاصيص اليهودية وهي (1) الورع (2) التعمير ثلاثمائة وخمس وستين سنة (3) والرفع إلى السماء.

نقول إن هذا الكلام يشعر بأن كتاب الإسلام مشحون بالأقاصيص التي من هذا النوع والواقع أنه ليس فيه واحدة منها.

وقد جاء أيضاً لمحمد فريد وجدي ودائرة معارف القرن العشرين:

«هرمس» هو هرمس الأول ولفظه أرمس وهو اسم عطارد ويسمى عند اليونانيين أطرسمين، وعند العرب إدريس، وعند العبرانيين أخنوخ، وهو ابن يارد بن مهلائيل بن

قيتان بن ألوش بن شيث بن آدم عليهما السلام، ومولده بمصر في مدينة منف منها. قال: وكانت مدته على الأرض اثنتين وثمانين سنة، وقال غيره ثلاثمائة وخمساً وستين سنة. قال المبشر بن فاتك: وكان عليه السلام رجلاً آدم اللون، تام القامة، أجلح، حسن الوجه، كث اللحية، مليح التخاطيط، تام الباع، عريض المنكبين، ضخم العظام، قليل اللحم، براق العينين، أكحل، متأنياً في كلامه، كثير الصمت، ساكن الأعضاء، إذا مشى أكثر نظره إلى الأرض، كثير الفكرة، به حدة وعبسة، يحرك إذا تكلم سبابته. وقال غيره إن أسقليبيوس كان قبل الطوفان الكبير، وهو تلميذ أغاثوذيمون المصري، كان هذا أحد أنبياء اليونانيين والمصريين، وتفسير أغاثموذيمون السعيد الجد، وكان أسقليبيوس هذا هو البادي بضاعة الطب في اليونانيين، علمها بنية وحظر عليهم أن يعلموها الغرباء. وأما أبو معشر البلخي المنجم فإنه ذكر في كتاب (الألوف) أن أسقليبيوس هذا لم يكن بالمتأله الأول في صناعة الطب، ولا بالمبتدئ بها بل إنه عن غيره أخذ، ونهج من سبقه سلك، وذكر أنه كان تلميذ هرمس المصري، وقال إن الهرامسة كانوا ثلاثة.

أما (**هرمس الأول**) وهو المثلث بالنعم، فإنه كان قبل الطوفان، ومعنى هرمس لقب كما يقال قيصر وكسرى، وتُسمِّيه الفرس في سيرها اللهجد، وتفسيره ذو عدل، وهو الذي تذكر الحرانية نبوته، وتذكر الفرس أن جده كيومرث، وهو آدم، وتذكر العبرانيون أنه أخنوخ وهو بالعربية إدريس. قال أبو معشر هو أول من تكلم في الأشياء اللونية من الحركات النجومية وإن جده كيومرث، وهو آدم، علمه ساعات الليل والنهار، وهو أول من بنى الهياكل ومجد الله فيها، وأول من نظر في الطب وتكلم فيه، وإنه ألف لأهل زمانه كتباً كثيرة بأشعار موزونة وقواف معلومة، بلغة أهل زمانه في معرفة الأشياء الأرضية العلوية، وهو أول من أنذر بالطوفان، ورأى أن آية سماوية تلحق الأرض من الماء والنار، وكان مسكنه صعيد مصر، تخير ذلك فبنى هنالك الأهرام ومدائن التراب، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي، وهو الجبل المعروف بالبوبلبربا أخميم، وصور فيها جميع الصناعات وصناعها نقشاً، وصور فيها جميع آلات الصناع، أشار إلى صفات العلوم لمن بعده برسوم، حرصاً منه على تخليد العلوم لمن بعده، وخيفة أن يذهب وسم ذلك من العالم، وثبت في الأثر المروي عن السلف أن إدريس أول من درس الكتب ونظر في العلوم، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خاط الثياب ولبسها ورفعه الله مكاناً علياً.

وأما (**هرمس الثاني**) فإنه من أهل بابل، سكن مدينة الكلدانيين وهي بابل. وكان بعد الطوفان في زمن بزبربالي الذي هو أول من بنى مدينة بابل بعد نمروذ بن كرش، وكان بارعاً في علم الطب والفلسفة وعارفاً بطبائع الأعداد، وكان تلميذه فيثاغورس الارتماطنقي، وهرمس هذا جدد من علم الطب والفلسفة وعلم العدد ماكان قد درس بالطوفان ببابل، ومدينة الكلدانيين هذه مدينة الفلاسفة من أهل المشرق وفلاسفتهم أول من حدد الحدود ورتب القوانين.

وأما (**هرمس الثالث**) فإنه سكن مدينة مصر وكان بعد الطوفان، وهو صاحب كتاب الحيوانات ذوات السموم، وكان نبياً فيلسوفاً عالماً بطبائع الأدوية القتالة والحيوانات المؤذية وكان جوالاً في البلاد طوافاً بها، عالماً بنصبة المدائن وطبائعها وطبائع أهلها، وله كلام حسن في صناعة الكيمياء نفيس يتعلق منه إلى صناعات كثيرة كالزجاج والخرز والفخار وماأشبه ذلك، وكان له تلميذ يعرف بإسقلبيوس، وكان مسكنه بأرض الشام.

وذكرت موسوعة قاموس الكتاب المقدس الصادرة عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى مايلي:

أخنوخ

اسم عبري ومعناه «مكرس» أو «محنك» ولفظ الاسم في الأصل العبري هو نفس الاسم حنوك في الترجمة العربية. وهو ابن يارد وأبو متوشالح (تك 5: 18 و 21) وهو السابع من آدم (يهوذا عدد 14) من نسل شيث. ويخبرنا الكتاب المقدس أن أخنوخ سار مع الله أي إنه عاش في طاعة الله وشركة معه (تك 5: 22 و 24).

وعاش ثلاثمائة وخمساً وستين سنة (تك 5: 23)، ويخبرنا الكتاب أنه لم يوجد بعد ذلك، لأن الله أخذه (تك 5: 24) وقد فسر كاتب الرسالة إلى العبرانيين هذا القول بأن الله نقله لكي لايرى الموت (عب 11: 5) ويذكر يهوذا في رسالته عدد 14 و 15 أن أخنوخ تنبأ عن القضاء الذي يحل بالأشرار. ويمكن أن نرى هذه النبوة مذكورة في سفر أخنوخ (ص91) - وهو من الأسفار غير القانونية.

كتاب أخنوخ

سفر من الأسفار غير القانونية ويسمى أيضاً «نسخة أخنوخ الإثيوبية» أو «الحبشية»

ويسمى أيضاً أخنوخ الأول، وينسب خطأ إلى أخنوخ المذكور في (تك 5: 23 و 24). والكتاب عبارة عن مجموعة من الأسفار اليهودية كتبت أصلاً في اللغة الآرامية على وجه الترجيح. وقد فقد الأصل الآرامي ولكن وجدت أجزاء من هذا الكتاب في الترجمة اليونانية. وكذلك توجد نسخة حبشية ترجمت عن النسخة اليونانية التي بدورها ترجمت عن الأصل الآرامي الذي يرجح أنه كتب بين سنة 163 و80 قبل الميلاد.

والكتاب مليء بأخبار الرؤى عن المسيا المنتظر والدينونة الأخيرة وملكوت المجد. ولعقيدة المسيا في هذا الكتاب أهمية خاصة، لأنها تمهد الطريق للعهد الجديد، وكذلك في هذا الكتاب «مسيح الله» انظر ص48: 10. وكذلك يدعى «البار» انظر 38: 2 وقارنه مع أعمال 3: 14 «والمختار» انظر ص40: 5، وقارنه مع لوقا 9: 35 في الأصل اليوناني وكثيراً مايدعى المسيا «ابن الإنسان» ص46: 2 الخ. ويقول كاتب سفر أخنوخ إن «ابن الإنسان» كان موجوداً قبل خلق العالم انظر ص69: 27 وأنه سيدلك على الشعب البار انظر ص62: 1-6.

ويقتبس كاتب رسالة يهوذا في عددي 14 و 15 سفر أخنوخ ص1: 9. وكذلك يوجد لبعض الأقوال الخاصة بأواخر الأيام في العهد الجديد مايقابلها في سفر أخنوخ. وقد اقتبس بعض الآباء في العصور المسيحية الأولى بعض أقوال هذا السفر. ومن بين هؤلاء جاستن الشهيد وأرينيوس الإسكندري وأوريجانوس. . ولكن قادة المسيحيين فيما بعد أنكروا هذا الكتاب ورفضوه. ومن بين هؤلاء. يوحنا فم الذهب وأغسطينوس وجيروم أو لورينيموس. ولم يعتبر اليهود أو المسيحيون هذا الكتاب ضمن الأسفار القانونية.

توجد نسخة سلافية تختلف في محتوياتها عن النسخة السابقة، ويسمى هذا السفر غير القانوني «أخنوخ الثاني» أو «كتاب أسرار أخنوخ» وقد كتب هذا السفر اليهودي أولاً في اللغة اليونانية في مدينة الإسكندرية في النصف الأول من القرن الأول الميلادي. وقد فقد الأصل اليوناني، أما النسخة الموجودة الآن فهي ترجمة سلافية.

ويحتوي على رحلة أخنوخ في السماوات السبع وإعلانات الله لأخنوخ حسبما يزعمون، وكذلك يحتوي على مايقولون إنه تحذيرات أخنوخ لأبنائه.

ومن موسوعة «رجال الكتاب المقدس» للقس إلياس مقار[1].

أخنوخ

لاأعلم كيف فاتني أن أتعمق في دراسة شخصية أخنوخ. ولاأعلم كيف فاتني - لسنوات متعددة - أن أقترب أكثر من هذا الشعاع من النور الذي أضاء في فجر الحياة البشرية، ولاأعلم لماذا لم أصدق في هذه الهالة التي لفَّت وجه الرجل السابع من آدم، الذي يقول البعض: إن اسمه يعني «المبتدئ» أو «الجديد» أو «المكرس»، وعلى أي حال فإن العدد «سبعة» رمز الكمال في لغة الكتاب، ويبدو أن الرجل كان بمثابة بداية جديدة أو نقطة تحول في مفهوم التكريس وعمقه وجلاله ومجده أمام الله والناس.. هل يرجع الأمر إلى أن الكلمات التي جاءت عنه قليلة ويسيرة في أربع آيات في سفر التكوين، وآية واحد في الرسالة إلى العبرانيين، واثنتين أخريين في رسالة يهوذا؟ أم لأننا مرات كثيرة لاتستلفت القصة أنظارنا إن لم تكن مصحوبة بوقائع معينة، تعين على الرؤيا أو تحديد الملامح؟ أم لأنا في عجلة الحياة وسطحيتها وضجيجها وعدم تعمقها نغفل عن أن نطل على الجواهر المتلألئة المضيئة، فلا نرى الرجل الذي كان أشبه بالفلتة النادرة في عصره فعاش الحياة ولم ير الموت، لأنه عاش أجمل حياة على أرضنا وبرح الدنيا إلى حياة أبدية أسمى وأجمل، دون أن توضع على شفتيه كأس المنون ليجرعها، كما يجرعها كل إنسان على الأرض؟.. لقد أفلت أخنوخ وإيليا من الموت ولن يوجد على شاكلتهما إلا أولئك الأحياء الذين يعيشون دون أن يروا الموت في المجيء الثاني السعيد.. من يكون هذا الرجل وماهي السمات التي يمكن أن تتميز بها شخصيته الرائدة العظيمة؟.. إنه في تصوري هو «التصوف» الأول في الحب الإلهي إن جاز هذا التعبير؟.

فإذا قرأنا عن قافلة المحبين لله، الذين يركضون في سباق الحب الإلهي، فسنجد هذا الرجل أول المتسابقين في فجر الحياة البشرية.. لقد فتحت عينيه على الله، وإذا رآه لم يعد يرى شيئاً في الوجود غيره، فتن بالله، واستغرقه الحب الإلهي، وكان أسعد إنسان في عصره يسير هائماً مع الله، وقد ازدادت سعادته بهذا اليقين الذي ملأ قلبه أنه أرضى الله.. وإذا صح أن رجلاً إنجليزياً عطوفاً تحدث ذات يوم إلى غلام كان يمسح حذاءه، وكان البرد قارساً.. وقال الإنجليزي للغلام بعطف عميق: ياغلام.. هل أنت مقرور؟. وأجاب الغلام بابتسامة عميقة: لقد كنت كذلك ياسيدي إلى أن ابتسمت في وجهي.. إذا صح أن وجهاً بشرياً يطل

(1) ج: طبعة القاهرة ص36 ومابعدها.

على آخر فيصنع الابتسامة ويشيعها فيه، فكم يكون الله الذي أطل على أخنوخ ورضي عنه وأخيه. . إنها قصة جميلة رائعة، تستدعي تأملنا وتفكيرنا، ولذا يمكن أن نرى أخنوخ من عدة نواح.

(أخنوخ من هو..؟)

لاأستطيع أن أتصور أخنوخ دون أن أراه الإنسان ذا الهالة والوجه النوراني، وهل يمكن لإنسان أن يعيش مع الله، ويسير في صحبة الله، دون أن تطبع الصورة الإلهية، أو الجمال الإلهي عليه؟. لقد صعد موسى إلى الله أربعين يوماً وأربعين ليلة، وعاد وجهه يشع بالنور وهو لايدري، ولم يعرف حقيقة حاله، إلا من فزع الإسرائيليين الذين لم يستطيعوا أن يبصروا هذا الإشعاع من النور دون رهبة أو إجلال أو فزع، ولقد تعود موسى أن يضع البرقع على وجهه، ليغطي هذا النور كلما اقترب من الناس أو التقى بهم، فكيف يمكن أن يكون أخنوخ الذي تعرف على الله وهو في الخامسة والستين من عمره، وسار مع الله ثلاثمائة عام بأكملها منذ ذلك التاريخ؟! وإذا صح أن «دانتي» كان يرسم على وجهه ـ وهو يكتب الكوميديا الإلهية ـ كل التأثرات والانفعالات التي تجيش في نفسه، فإذا كتب عن السماء، فهو أدنى إلى الملاك وهو يكتب، مأخوذاً بالصور السماوية الرائعة. . وإذا تحول إلى الجحيم يدير وجهه، وكأنما الشيطان ينعكس من خلال ملامحه ونظراته، فهو أدنى إليه وأقرب، . . وإذا صح أن الحياة تطبع على وجه الإنسان في الأربعين من عمره ـ كما يقال ـ معالمها من ذات السلوك الذي يسلكه بين الناس، فإن الرجل الذي يسير ويستمر مع الله في سيره ثلاثمائة عام متوالية، لابد أن ينال من الجمال الإلهي مالم يعرفه معاصروه أو أجيال كثيرة تأتي بعده، . . وهو الرجل النافذ النظر، البعيد الرؤيا، الحالم الوجدان، الذي يمد بصره إلى ماوراء المنظور، فيرى من لايرى، شخص الله الذي آمن به، واستولى على كيانه وسيطر على كل ذرة من تفكيره وعواطفه وبنيانه، . . وإذا كانوا قد قالوا: إنّ المصور المشهور «هولمان هانت» عندما قيل له كيف يستطيع أن يصور المسيح ويرسمه دون أن يكون قد رآه، . . أجاب: إني سأراه وأعيش معه، سأراه طفلاً في مذود بيت لحم، وسأذهب وراءه إلى مصر، وأعود معه إلى الناصرة، وأصعد وإياه فوق جبل التجلي، وأجول معه في جولاته بين الناس، وأتمشى وراءه في أورشليم، ولن أترك مكاناً ذهب إليه دون أن أذهب، وسأرسمه مأخوذاً بهذه كلها. . فإذا صح أن هذا المصور يعيش بخياله مع المسيح على هذا النحو الجليل فإن أخنوخ ـ وهو يضرب

بقدميه في كل مكان، وقد أخذ الله بلباب حياته ـ لابد أن يكون الإنسان السارح الفكر البعيد الخيال، الممتد الرؤيا، الكثير التأمل، بل لعله من أقدم الشخصيات التي صلت فأطالت الصلاة وناجت فمدت المناجاة، وهل يمكن أن يسير مع الله وهو أصم أو أعمى أو أبكم؟ لقد استيقظت حواسه بأكملها، فهو سامع مع الله، متكلم معه، وهو الذي سيجد من الشركة مع الله، مايعطيه أن يشدو ويترنم ويسبح ويغني!!.. فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا الرجل كان واحداً من أقدم المحبين الذين ملأ حب الله قلوبهم، بل لعلنا نذهب أكثر فنراه المتصوف الذي بلغ أعلى درجات الحب الإلهي،.. فإذا كان اليونانيون قد جاءوا بعد آلاف السنين ليفصلوا أنواع الحب، وكانت هنالك كلمات ثلاث مختلفة عندهم الأولى EVRN وتعني حب الشهوة ليس بين الرجل والمرأة، بل كل الأنواع التي تستحق أن تملك كمثل حب الجمال أو الخير، أو الحب الذي هو أساس الحياة الأدبية كحب الفضيلة، أو أساس الحياة الفنية، كتذوق الجمال أو أساس الحياة الفلسفية، وقد رأوها في حب الآلهة، أو الأبدية أو الخلود... وكانت الكلمة الثانية Phibein وهي حب الخير غير الأناني الذي يعنى بالإنسان والصديق والوطن وماأشبه، وكان اليونانيون يصفون به أعلى الناس، وقد وصفت به أنتيجون، الفتاة التي تابعت أخاها حتى القبر، وظلت إلى جوار جثته حتى ماتت، ووصفت به نبلوت التي ظلت عشرين عاماً تحدق في الفضاء البعيد تنتظر مجيء زوجها وسفنه الضائعة،.. والكلمة الثالثة Agapan وقد استخدمت أكثر من معنى، وشاعت عباراتها بالمعنى السالف للكلمتين، وإن كانت تعبر عن الحب القوي العميق!!.. إذا كان أخنوخ في فجر الحياة البشرية لم يفصل أو يفرق بين هذه الأنواع، إلا أنه عاشها. فقد عاش يتذوق الحب الإلهي، ولعله صاح طوال حياته للناس: ذوقوا وانظروا ماأطيب الرب، كما صاح المرنم الذي تغنى بذلك بعد آلاف السنين. أو لعله قال: «إلى اسمك وإلى ذكرك شهوة النفس بنفسي أشتهيتك في الليل أيضاً بروحي في داخلي، إليك أتبكر، لأنه حينما تكون أحكامك في الأرض يتعلم سكان المسكونة العدل. يرحم المنافق ولا يتعلم العدل في أرض الاستقامة يصنع شراً ولايرى جلال الرب» كما قال أشعياء فيما بعد!! وعاش الحب الذي خرج به عن نفسه، واستغرق لا العشرين عاما التي عرفتها بنلوب وهي تحدق في الفضاء البعيد، التي لم ترض بغير زوجها بديلاً،.. ولم يرض زوجها بغيرها بديلاً ـ حتى في جنات الآلهة كما سرح الخيال الوثني ـ وظلا كلاهما على الوفاء بعد حروب طروادة حتى التقيا آخر الأمر،.. إن حب أخنوخ لله، كان هو التصوف

الذي أشرنا إليه، والذي عاشه ثلاثمائة عام، وتجاوز به حاجز الموت حتى التقى بالله ليسبح في بحر الحب الإلهي إلى آباد الدهور!!..

وكان أخنوخ - ولاشك، كما وصفه الكسندر هوايت - أسعد إنسان في عصره، وعلى الرغم من أن العصر الذي عاش فيه - كما سنرى - من أشَرِّ العصور وأفسدها،.. لكن الرجل مع ذلك وجد جنته الحقيقية في السير مع الله،.. إنه لم يفزع من الله كما فعل آدم عندما زاره الله في الجنة، وكان عرياناً يخجل من خطيته وعريه، ويتنافر بالخطية تلقائياً عن محضر الله أو السير معه،.. إلا أن أخنوخ كان على العكس، لقد أدرك ترياق الله من الخطيّة، وتعلم كيف يتقرب إلى الله بالذبيحة، بل يلتقي المحبان في نشوة الحب وعمقه وصدقه وجلاله وحلاوته،.. وأجل وتلك حقيقة أكيدة إذ إن حب الله استحوذ عليه فغطى على كل عاطفة أخرى، وجاء البديل لكل حاجة أخرى، وأسكره وهو يعلم أو لايعلم عن كل خمر يمكن أن يقدمها الناس بعضهم لبعض في هذه الحياة!!.. لقد عرف أخنوخ لغة الشاعر المتصوف الذي أنشد قصيدته بعد ذلك وهو يقول لله:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

إذا نلت منك الود ياغاية المنى ... فكل الذي فوق التراب تراب

وكان أخنوخ أكثر من ذلك الرجل الغيور الملتهب، إن سيره مع الله لم يحوله إلى مجرد إنسان تأخذه النشوة، فيعيش في الأحلام دون أن يرى الواقع الذي يلمسه في العالم الحاضر الشرير، لقد زمجر كالأسد كما جاء في رسالة يهوذا قائلاً: «قد جاب الرب في ربوات قديسية ليصنع دينونة على الجميع، ويعاقب جميع فجارهم على جميع أعمال فجورهم التي فجروا بها وعلى جميع الكلمات الصعبة التي تكلم بها عليه خطأة فجار». وهنا نرى رجلاً ممتلئاً من الشجاعة، وقف إلى جانب الحق ومواكبه، ورفض أن يساير الباطل أو يرضى على الكذب أو يعيش في دنيا الخداع والنفاق والضلال،.. لقد أدرك أن الحق حق، وسيبقى ويسير هو إلى جانب الحق، حتى ولو امتلأت الدنيا بالباطل!!.. كان شجاعاً، وكان غيوراً، وكان الشاهد على عصره، لعصر يجري سريعاً ويستعد للطوفان المدمر المقبل الرهيب!!.

ولعله من الواجب أن نلاحظ هنا، أن ماأشرنا إليه عند تحليل شخصية أخنوخ، لايعني بذلك أنه كان من طينة غير طينتنا، أو من طبيعة غير الطبيعة البشرية . . . لقد ولد أخنوخ في عالمنا وجبل كما جبلنا، . . وهو يمكن أن يقول ماقاله آخر فيما بعد: «هاأنا الآثم صورت بالخطية حبلت بي أمي» . . . لقد ولد أخنوخ بالخطية، وفي الخطية، ولكنه كأي مؤمن آخر، عرف الحياة الجديدة، والولادة الثانية . . ومن العجب أن هذه الولادة . . جاءت نتيجة ولادة ابنه، إذ يقول الكتاب: «وسار أخنوخ مع الله بعدما ولد متوشالح» . . لقد تطلع إلى وجه ابنه، ومن خلال هذا الوجه عرف الأب السماوي، لست أعلم مدى حبه لهذا الولد، ولكن هذا الولد كان بمثابة الفجر الجديد في حياته الروحية، أو في لغة أخرى: لقد أدرك أخنوخ أبوة الله عندما أصبح هو أباً، ومن خلال حنانه على ابنه أدرك حنان الله عليه.

ماأكثر الوسائل والطرق التي يستخدمها الله حتى تفتح عيوننا على ذلك الطارق العظيم الذي يقف على الباب ويقرع، فإن سمع أحد وفتح الباب، يدخل إليه ويتعشى معه، وهو معه، . . ومن الناس من يجذبه الله بالعطية، فتأتي قرعته الحبيبة في صورة إنسان دافق، وخير عظيم. قد يعطينا ولداً يؤنس حياتنا، أو معونة تسد حاجتنا، أو رحمة تقابل تمردنا وعصبيتنا . . قد يأتي إلينا كما جاء إلى يعقوب الهارب في دجى الليل، بعد أن خدع أباه وأخاه، وكان من الممكن أن يقسو الله عليه أو يعاقبه، ولكنه على العكس رأى سلم السماء والله فوقها يقول له: «أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق، الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك ويكون نسلك كتراب الأرض، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض، وهاأنا معك وأحطك حيثما تذهب وأردُّكَ إلى هذه الأرض ولاأترك حتى أفعل ماكلمتك به» . . وقد كان الله أميناً ودقيقاً وصادقاً في وعده إلى الدرجة التي جعلت يعقوب في عودته يصرخ أمامه قائلاً: «صغير أنا عن جميع ألطافك وجميع الأمانة التي صنعت إلى عبدك، فإني بعصاي عبرت هذا الأردن والآن قد صرت جيشين» . . . وقد يأتي الله بصور متعددة أخرى، قد يكون ظاهرها الغضب، وباطنها الرحمة، أو شكلها التأديب وقلبها المحبة، . . ولكنها على أي حال، هي نداءات الله إلى النفس البشرية حتى تعود من الكورة البعيدة إلى بيت الأب حيث الفرح والبهجة والحرية والجمال والعزم. وقد جاء هذا النداء بقدوم متوشالح ومعه عندما كان أخنوخ في الخامسة والستين من عمره.

أخنوخ المؤمن

فتح أخنوخ بالتجديد الصفحة العظيمة في العلاقة بالله، وهي ماأطلق عليها سفر التكوين: «وسار أخنوخ مع الله بعدما ولد متوشالح ثلاثمائة سنة وولد بنين وبنات». . أو مادعاه كاتب الرسالة إلى العبرانيين حياة الإيمان، «بالإيمان نقل أخنوخ لكي لايرى الموت ولم يوجد، لأن الله نقله إذ قبل نقله شهد له بأنه قد أرضى الله، ولكن بدون إيمان لايمكن إرضاؤه». . أي إن السير مع الله، كان حياة الإيمان المرضية لله، والمبهجة لقلبه، . . ولم يكن هذا السير جدولاً رقراقاً بل نهراً متدفقاً، ولم يكن فتيلة مدخنة، بل ناراً متوهجة، . . أو، في لغة أخرى، كان إيماناً قوياً كاسحاً غلاباً لايتذبذب، وهو بهذا يعد من أبطال الإيمان، وإذا شئنا أن نحلل إيمانه أو نصفه، يمكن أن نراه أولاً وقبل كل شيء، المؤمن الذي آمن عقلياً بالله، وكل خلية في ذهنه كتب عليها الله، . . لقد ابتدأ بما انتهى إليه الفيلسوف ديكارت. .

. . . لقد أراد ديكارت أن يصل إلى الله، فبدأ من النقطة التي عزل فيها فكره عن كل مسبقات، . . وافترض أنه لايوجد شيء يؤمن به، فهو لايرى الطبيعة، وقد يكون الإيمان بها ختال النظر، وخداع الحس، وهو لايؤمن بالله، فقد يكون الله موجوداً أو غير موجود، وظل ديكارت يشك في كل شيء إلى أن بلغ النقطة أنه لايشك في أنه يوجد إنسان يشك، ومن سلم الشك آمن أنه موجود، إذاً فلا بد أن له عقلاً، وأن هذا العقل يستطيع أن يفكر، وأخذ من سلم الشك طريقه إلى الإيمان، حتى توج هذا الإيمان بوجود الله، علة كل معلول، لاأعلم إن كان أخنوخ فكر في شيء من هذا، لكنني أعلم أنه آمن بوجود الله وأدرك أن الله هو الحقيقة العظمى في الوجود، بل إن الله هو حقيقة كل حقيقة وصلت إلى ذهن الناس، وبلغت إدراكهم، فالله هو علة كل معلول، ومسبب كل سبب. . على أن إيمان أخنوخ لم يكن مجرد إيمان عقلي، بل كان أكثر من ذلك هو الإيمان الوجداني الذي تملك عاطفته، وسيطر على مشاعره وإحساساته، . . إن عواطفه كانت كلها إلى جانب الله، هل رأى الله في الطبيعة الساحرة؟ هل رأى الله في الزنبقة الجميلة!!؟ هل رأى الله في خلق العصفور المغرد!!؟ هل رأى الله في الصخرة المذهلة!!؟ هل رأى الله في السموات البعيدة!!؟ هل رآه في الشمس والقمر والنجوم؟ لقد رآه كاتب المزمور الثامن والتاسع عشر، ورآه وردثورت في الجبال العظيمة، ورآه يوناثان إدواردس في مظهر الطبيعة الخلاب، ورأته أعداد من الناس لاتنتهي، ممن يتحسسون الجمال، فلم يؤمنوا بجمال الطبيعة فحسب، بل قالوا مع الشاعر العظيم

ملتون: بناء هذا الكون بناؤك وهو عجيب الجمال فكم أنت في ذاتك عجيب!!.. ورأى أخنوخ الله أكثر في أعماق نفسه، فهو لايرى الله حوله بل أكثر من ذلك يرى الله داخله، أو كما وصفه أحدهم بالقول: إنه لم يره في الجمال الخارجي فحسب، بل رآه في الجمال الداخلي، في ذلك الشيء الحلو الدافق الذي يغمر قلبه، وفي المسكرة اللذيذة التي تدغدغ حياته،.. إنه ذلك المحب الذي يسرح بعيداً بطرفه لا لأنه يرى شيئاً أمامه، بل لأنه يناجي وجدانه الداخلي، وهو مرات كثيرة يمتلئ بالبشاشة والسرور، لأن منظر المحبوب ومض أمام عينيه بصورة تبعث على النشوة، وتملأ الجوانح بسعادة لاتوصف،.. وهكذا كان أخنوخ يسير مع الله وكأنما يشرب كأساً مترعة مردية من الراح!! على أن أخنوخ في سيره مع الله كان أكثر من ذلك المؤمن اختباراً وعملاً،.. كانت له جنته الحقيقية في قصة الحياة اليومية العملية مع الله، ونحن لانعلم هل كان الله يظهر له بين الحين والآخر كما كان يظهر لأبينا إبراهيم؟ لكنا نعلم بكل تحقيق أن صلته لم تكن منقطعة بالسماء، وكل مايفعله الإيمان في حياتنا اليومية، كان من المؤكد يفعله في حياة ذلك الرجل القديم،.. وهل هناك من شك في أن أشواقه كانت سماوية، ففي الوقت الذي كان فيه معاصروه يضجون بما تضج به الحياة الأرضية من أكل وشرب ولهو ولعب وتجارة وعمل وقتال، كان هو يسير بقدميه على الأرض، وأشواقه وأنظاره متطلعة إلى السماء... كان متخفف الثقل من الجاذبية الأرضية، إنه لم يكن يعيش ليأكل «بل يأكل ليعيش.. وكان الناس يحيون في العالم ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، وأفكارهم واهتماماتهم في الأرضيات، أما هو فعاش ثلاثمائة وخمسة وستين عاماً، وأفكاره بعد الحياة المجددة لمدة ثلاثمائة عام أفكار سماوية، عاش الناس يزرعون حدائقهم، ويروون أشجارهم، ويأكلون ثمارها، أما هو فكان يعيش بطعام أبقى وأسمى، وهو يأكل من حديقة الله غير المنظورة في الشركة مع سيده، كان طعامه من المن المخفي في العلاقة بسيده،.. ولم تكن مجرد الأشواق هي التي تفصل بين أخنوخ ومعاصريه،.. بل الصلاة أيضاً، لقد عرف الصلاة بكل أنماطها وألوانها في العلاقة مع الله، كان من أوائل الذين تخاطبوا مع الله، وأكثروا الصلاة،.. فحياة الشكر كانت على لسانه في كل وقت،.. هل رأى عصفوراً يغرد على شجرة؟ إنه يشكر الله الذي صنع الشجرة، وصنع العصفور، وصنع الصوت الجميل الذي يغرد به العصفور!!؟ هل تمتع بالحياة بمتعة ما، إنه يشكر الله الذي هو مصدر كل متعة يحس بها بين الناس.. وهل احتاج إلى شيء، وانتظر أمراً؟ إنه قبل

أن يتحدث به مع الناس، أو يتخاطب به مع البشر يخاطب به الله الذي يستودعه كل انتظاراته واحتياجاته!!؟. هل جاءت الغيمة، وغطت الشمس، وحل الظلام؟.. إنه يؤمن بأن الشمس خلف الغيمة، وأنه مهما تتلبد الغيوم، فإنها لا بُدَّ أن تنقشع، ويعود النور مرة أخرى، وتتوارى التجارب والآلام والمتاعب!!.. إنه على أي حال يصلى بصلوات وابتهالات وتضرعات.. لأن الصلاة عنده هي النداء الذي يتجه به إلى الله في السماء!!.. لم تكن الحياة عند أخنوخ مجرد التطلع إلى الغيبيات، بل كانت أكثر من ذلك، الحياة التي تواجه الواقع في مختلف ألوانه وظروفه، هل ناله الأذى من الناس؟ هل أمعنوا في إيذائه؟ هل تحولت الحياة ضيقاً مابعده من ضيق؟.. لقد عرف الرجل طريقه إلى النصر، في النظر إلى معنى الضيق في الأرض، لقد أدرك نفسه غريباً في الأرض، يطوي الزمن كما يطوي الجواب الصحراء القاسية، ولابد من الوطن، والضيق يهون، مادام السبيل إلى الله يتدانى ويقترب، وخفة ضيقته الوقتية ستنشئ أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً!!.

وفي كل الأحوال واجه أخنوخ الحياة، وكافح الصعاب والمشقات والمتاعب، ولعله أدرك الحكمة التي غابت عن الصبي الصغير الذي وقف يرفع حجراً ثقيلاً - كما تقول القصة - وكان أبوه يرقب محاولته اليائسة دون جدوى،.. وقال الأب - وقد أدرك جهد ابنه البالغ. هل جربت يابني كامل قوتك في رفع الحجر!!؟. وأجابه الصغير: نعم ياأبي، وليس عندي قوة أكثر من ذلك.. وقال الأب: لاأظن يابني فمثلاً أنا قوتك، ولم تَدْعُني لمساعدتك على رفع الحجر!!.. كان أخنوخ يعلم أن الله قوته التي يستعين بها في مواجهة كل صعوبة أو مشكلة أو معضلة أو تعب.

كان أخنوخ السابع من آدم نبياً، وكان من الأنبياء الشجعان الأقوياء وعندما رأى الفساد يتزايد في الأرض ويستشري، زمجر كالأسد في مواجهة الخطاة، وكشف لهم عن دينونة الله الرهيبة العادلة، وغضب الله الذي سيلحق بفجور الناس وإثمهم، وربما كان أخنوخ أول من تحدث عن عقاب الله الأبدي الرهيب!!..

أخنوخ الخالد

كان أخنوخ الأول في الجنس البشري الذي قفز فوق سور الموت، ودخل الحياة الأبدية دون أن يتذوق كأسه القاسية المريرة، وكان أول البشر في الإعلان عن الخلود في الصفحات الأولى من كتاب الله، بل كان أولهم الذي يمكنه أن يقول: «وإن كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدد يوماً فيوماً»، لم يكن هناك موت بالنسبة لأخنوخ، بل هناك انتقال وتطور، كان هناك مجرد انتقال من رحلة الأرض إلى رحلة السماء، . . هل انتقل في مركبة من نار كما انتقل إيليا؟ أم انتقل إذ أخذته سحابة كما أخذت المسيح عن أعين التلاميذ؟ . . وهل جاء الانتقال أمام الناس كما يعتقد الكثيرون، حتى يبدو الأمر شهادة على سيطرة الله على الموت؟ أم أختفى فجأة على وجه لم يستطع أحد معرفة مكانه، وعبثاً وجدوا مكانه، كما فعل أبناء الأنبياء عندما حاولوا التفتيش على إيليا؟ على أي حال. . لقد أمتلأ أخنوخ بالحياة مع الله، وتشبع بهذه الحياة، حتى لم يجد الموت مكاناً له عنده، . . إنه يذكرنا بأسطورة الرجل الذي قيل إن الموت جاءه فجأة ذات يوم، وطلب الرجل إمهاله بعض الوقت، وقيل إن الموت أمهله قائلاً: سأعود إليك بعد سنة وشهر ويوم وساعة، وفزع الرجل محاولاً أن يجد السبيل إلى الخلاص من الموت، فذهب إلى الشمس وسألها: هل يمكن الهروب من الموت؟ . . وأجابته الشمس: إنها تشرق على الناس وصرخاتهم كل يوم وهم يدفنون من لهم، ولم يحدث في يوم من الأيام أن غاب الموت عن الناس في الأرض، . . ذهب إلى الرياح يسألها: هل يمكن الهروب من الموت؟ وأجابته الرياح: إنها تلف الكرة الأرضية، وتلف بالصارخين الذين يصرخون وراء موتاهم في الأرض، ذهب إلى البحر يسأل: هل يمكن الهروب من الموت؟ وقال له البحر: ماأكثر الذين ضمتهم الأمواج والمياه من الغرقى أو الذين ماتوا على ظهر السفن، وطوح بهم تأكلهم الأسماك!!. . وحار الرجل، وفي حيرته التقى بملاك فوجه إليه السؤال: هل يمكن الهروب من الموت؟ . . وقال الملاك: إنك تستطيع إذا سرت في موكب الأرض، والتقيت بالطفل الصغير الباكي، وعليك ألا تتركه حتى يضحك، والبائس حتى ترتسم السعادة على شفتيه والمنكوب حتى يرتفع فوق مأساته ونكبته ويترنم، . . وصدق الرجل، ووقف أمام آلام الناس وأحزانهم ومآسيهم وتعاساتهم، وهو يحول الدموع إلى الضحك والابتهاج والترنم، . . وقيل إن كل ابتسامة أوجدها على فم صغير أو كبير، انتقلت إليه وحولته هو إلى ابتسامة كبرى، دهش الموت عندما جاء لأنه وجد الرجل طيفاً مبتسماً في الأرض، . . هذه خرافة ولاشك، ولكنها

تحمل المعنى العميق بالنسبة لأخنوخ، لقد ظل أخنوخ يتخفف من ثقل الأرض، ويرتفع في اتجاه السماء، حتى أفلت الجاذبية الأرضية، وأخذته السماء بكل مافيها من جلال وعظمة وبهجة ومجد. . . ولم يوجد لأن الله أخذه[1]!.

قد تسألني: ولكن كيف يمكن أن يكون هذا، وكيف يتحول الجسد المادي الحيواني إلى جسد روحاني؟!!

لست أعلم، وليس في قدرتي أن أصف كيف يتجمع التراب والرماد ليعود جسداً ممجداً في القيامة من الأموات، . . كل ذلك فوق علم الإنسان وفهمه وتصوره وخياله، . . لكني أعلم أن هناك فارقاً كبيراً بين الجسد الذي عاش به أخنوخ على الأرض، والجسد الممجد في السماء. . هذا الفارق هو ذات الفارق بين البذرة، والشجرة، وبين صغر الأولى وضآلة منظرها وحجمها، وكبر الثانية وعظمة صورتها وجلالها. . . ومهما يعجز الخيال البشري عن توضيح الفرق بين الحياة هنا، والحياة هناك، إلا أن أخنوخ كان بانتقاله إلى حضرة الله عبر الخلود وتوضيحاً للكلمات العظيمة التي ستأتي بعد آلاف السنين على فم السيد المبارك: «من آمن بي ولو مات فسيحيا، ومن كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد». . . أو ماقاله الرسول عن المسيح: «الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل».

أجل. . سار أخنوخ مع الله، وعندما بلغ النهر ووقف على الشاطئ حمله الله عبر المجرى إلى الشاطئ الآخر الأبدي، ليسير الأبدية كلها في صحبة الله وملكوته ومجده، مع جموع المفديين، وحق له كالبشري الأول أن يوصف بالقول: «بالإيمان نقل أخنوخ لكي لايرى الموت ولم يوجد لأن الله نقله إذ قبل نقله شهد له أنه قد أرضى الله ولكن بدون إيمان لايمكن إرضاؤه، لأنه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن أنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونه. . !!

الموسوعة العربية الميسرة: بإشراف: محمد شفيق غربال

الصادرة عن دار الشعب ومؤسسة فرانكلين طبعة 1965 صفحة 99

إدريس: أحد الأنبياء، ذكر في القرآن مرتين مريم (56) (الأنبياء 85) عُدَّ أول من خط بالقلم وأول من عرف التنجيم والطب. شيخ الصناع وأهل الحرف، احيط اسمه بأقاصيص.

---

(1) انتقلت هذه الفكرة لبعض مذاهب غلاة الشيعة.

معجم المنجد ـ قسم الأعلام بإشراف فردينان توتل

الطبعة اليسوعية بيروت:

إدريس: شخص ذكر مرتين في القرآن. لقب بالباز وبالنبي، وذكر مع الصابرين، ومن المحتمل أن اسم إدريس يكون مصاغاً من إندراوس، وقال فيه العرب إنه كان نقياً وملهماً بالعلوم والفنون وإنه عاش 365 عاماً على الأرض ثم رفعه الله إليه. وقال بعضهم إن إدريس وإلياس والخضر هي ثلاثة أسماء لمسمى واحد.

ـ في الموسوعة العربية التي وضعها إلبرت الريحاني وغيره

عام 1955 في بيروت مادة هرمس:

هرمس في الميثولوجيا الإغريقية: ابن زيوس ومايا، رسول الآلهة ورب اللصوص والمسافرين والتجار. يظهر متنقلاً بصندل مجنح، ويحمل عصا ملفوفة عليها حيات. يقابل الإله عطارد عند الرومان.

وجاء في دائرة المعارف الأمريكية (أمريكانا).

أنوخ (أو أخنوخ)

اسم لشخصيتين في العهد القديم. أحدهما ذكر في سفر التكوين مع الشخصيات البطريركية التي عمرت طويلاً، والتي تعود إلى آدم ونوح، وقد وصف بأنه ابن (يارد) و (ميتوشالح) (التكوين 5: 18 ـ 27)، وقد عاش 365 سنة. أما سفر التكوين (التكوين 5: 24) فيذكر أن أنوخ قد ظهر مع الله، ولكنه لم يكن هو، لأن الله قد أخذه. وقد أثار هذا القول فضول الكتّاب فيما بعد.

أما كتاب سيراخ (أكليركي)، في الأبوكريفا (14 سفراً تلحق بالعهد القديم أحياناً)، فيقول إن أنوخ «قد أرضى الله، ورفع إلى السماء» (44: 16). وفي العهد الجديد فتقول (أبيستال) لليهود «إن (أنوخ) بإيمانه، قد رفع إلى السماء حتى لايرى الموت»، (5: 11). وقد جعلت التقاليد الشعبية (أنوخ) يتنبأ بواسطة العديد من الرؤى. وقد سجلت هذه الرؤى «في كتاب أنوخ».

أما (أنوخ) الثاني فقد ذكر في (التكوين 4: 17) بأنه الابن الأكبر (لكاين).

وجاء في دائرة المعارف البريطانية (برتانيكا) مادة هرمس وهارم

إله إغريقي، ابن زيوس ومايا، ويتماثل غالباً مع الإله الروماني عطارد ومع كاسميلسوس أو كاديلوس، واحد من الكابيري) ومن المحتمل اسمه قد اشتق من (هيرما)، وهي كلمة إغريقية تعني كومة من الحجارة، كالتي كانت تستخدم كحدود لبلد أو علاقة أو مجموعة حصى. ومن الممكن أن أركاديا كانت المركز الأول لانطلاق دينه، حيث اشتهر جبل سيلون بأنه مسقط رأسه. وهناك كان يعبد بشكل خاص كإله الخصب، وكانت صورة فالوسيه (ترمز إلى الاستيلاء). وترافق هرمس في الأدب والدين معاً، مع حماية الماشية والغنم، كما ارتبط بشكل وثيق بآلهة النباتات، وخاصة (بان) (إله الغابات والمراعي والرعاة عند الإغريق) [ونيفس] (الحواري، أو إحدى إلاهات الطبيعة). وعلى أية حال، فإنه يظهر في الأوديسا كرسول الآلهة الذي يصل بين الرأس والحارس (مثوي الأموات). وكان أيضاً إله الأحلام، ولذلك كان الإغريقيون يقدمون إليه الإراقة (الشراب) الأخيرة قبل الخلود للنوم. وكرسول، أصبح أيضاً إله الطرقات والمداخل، فكان يحمي المسافرين، أما مايعثر عليه من كنوز فكان هدية منه، كما كان يعزى إليه كل حظ حسن. وهذا المفهوم ودوره الإلهي في الكسب، والشرف أو الرذيلة، تُستمد بشكل طبيعي من شخصيته كإله الخصب. وفي مجالات كثيرة كان هرمس مثيلاً لـ أبوللو فكان نصير الموسيقى، وقد نُسب إليه اختراع القيثارة، كما كان إله الفصاحة. وأصبح يترأس بعض أنواع التكهنات (التنبؤات) الشعبية.

كان الرقم المقدس لهرمس هو (أربع)، واليوم الرابع من الشهر هو يوم ميلاده. أما في الفن القديم، منفصلاً عن شكله المحدد كإله، فقد صور رجلاً كامل النمو، ذا لحية، وبرداء طويل وقلنسوة وحذاءين مجنحين. وفي بعض الأحيان كان يُمثّل بشخصيته الرعوية حاملاً خروفاً على كتفيه، وأحياناً أخرى يظهر كرسول الآلهة (كيري كيون)، أو كنذير أو بشير وهذه كانت الصفة الأكثر تكراراً فيه. ومنذ نهاية القرن الخامس بعد الميلاد، أصبح يُصوّر شاباً عارياً بدون لحية، شاب رياضي.

(هارم)

وهو في الدين الإغريقي، شيء حجري مقدس يتعلق بدين هرمس، إله الخصب، ومن

الممكن أن اسم هرمس، بالنسبة لبعض العلماء، قد اشتق من كلمة (هرما) أو تعني بالإغريقية «حجر أو صخر»، توضع كعلامة للحدود، أو «قطعة حصى». ومع تطور الذوق الفني ومفهوم الآلهة التي أخذت شكلاً بشرياً، فقد أخذت هذه الأشياء تميل إلى استبدالها بتماثيل أو أعمدة رباعية الشكل تستدق تدريجياً عند القاعدة لتوحي بشكل بشري. وعادة كانت تُتوج هذه التماثيل أو الأعمدة برأس هرمس (ومن هنا كان اسمه)، ولها رمز للعضو الذكري. ولم تكن تستعمل في الأغراض الدينية فقط، وإنما لأغراض أخرى مختلفة، فمثلاً كحدود، (تخوم) أو معالم (تمثل مرحلة من المراحل التاريخية أو الإنسانية). وكانت هذه التماثيل موضع احترام إن لم تكن تعبد فعلياً. كما ظهر هرمس في النحت الروماني، وربما كان له رأس إله الغابات (سلفانوس)، أو رئيس الآلهة (جوبيترترمينوس). أما في الأزمنة اللاحقة فقد استخدمت (رموز هرمس) الخيالية (العجيبة) كطريقة للتزيين. وقد وجدت رموز هرمس فردية وثنائية، ولم تكن رؤوسها دائماً تمثل الآلهة.

(هرمس في معجم الميثولوجيا العالمية)

ويدعى بالرومانية (مركوري)، وهو ابن (زيوس ومايا)، ووالد (أوتوليكوس)، الذي أنجبه من (كيون). إنه رسول الآلهة، وقد قام بأعمال أكثر تعقيداً أو تنوعاً من أعمال أعظم الآلهة. فكان مسؤولاً عن التناسل عند الحيوان وكان إله الثروة، وإله التجارة والمسافرين، والمراسلات، والحرف اليدوية، والخطابة والفصاحة، وإله اللصوص، والرياح، التي كان قادراً على التحرك بسرعتها، كما كان نصير الرياضيين. بعد بضع ساعات من ولادته، سرق قطيع (أبوللو)، واخترع القيثارة وأعطاها إلى أبوللو، الذي أعطاه بدوره الصولجان، وهو عصا ذهبية في أعلاها جناحان، وتلتف عليها حَيَّتان، وهو شعار مهنة الطبابة اليوم، وأصبح ابنه (أوتوليكوس) بطل اللصوص في العالم. ويعني اسم هرمس (المسرع) وترمز صوره إلى أنه رسول، أو إلى السرعة والبطولة في الطيران. ويروي ميلتون وكوانس وشيللي في أحد قصصهم عن الأعمال التي قام بها في اليوم الأول من حياته: (1) سرقة قطيع أبوللو، (2) اختراع القيثارة، (3) صنع الأحذية المجنحة التي كانت تسمى تالاريا، (4) إضرام النار بحك العصيّ بعضها مع بعض (5) تحضير أول طعام من اللحم من قطيع أبوللو الذي سرقه وذبحه، وتقديم ذلك الطعام إلى الآلهة، وكانت جميع هذه الأعمال في اليوم الأول من

حياته. وقد قدم له زومن رداء مجنحاً سمي بيتاسوس. وتضمنت مهامه كرسول أعمالاً كثيرة: (1) إيصال أرواح الموتى بمقرهم الأخير، (2) أخذ الإلاهات الثلاث إلى محاكمة باريز، (3) مرافقة زيوس في زيارته إلى بانكي وفيلمون، (4) قتل أرجوس ذي المائة عين، (5) تحرير آرس من سجنه (قيده) الطويل، (6) تبرئة (تطهير) دانيد، (7) تقييد آكسوف إلى العجلة، (8) تحذير إينوس بالإسراع إلى إيطاليا، (9) أمر كالبسو بإبعاد (بنفي) أوديسون في رمث، (10) بيع هرقل إلى أومفال - وهذه بعض الأعمال التي قام بها. وقد رويت قصة هذا الأوليمبي الكبير مع الصولجان والقبعة والحذاء من قبل كثيرين، من بينهم أبوللو دوروس وهومر وأبوللونيوس في التراتيل الهرمزية نرجيل بانسانياس وأوفيد.

(هرمس في كتاب الآلهة والأبطال والرجال في اليونان القديمة)

لم يكن على أبوللو أن يتعلم من التنبؤ فقط، فقد أحب الموسيقى والغناء، ولكن لم تكن لديه آلة موسيقى يعزف عليها. وقبل معرفة كيف حصل على إحداها، عليك أن تستمع إلى قصة هرمس.

لاأستطيع أن أروي كل شيء بالترتيب كما حدث، وإلا فإن القصص ستكون مجموعة مختلطة. ولهذا علي أن أخبركم كيف انضم هرمس إلى الآلهة. كان هرمس بن زيوس ومايا وعاش في جبل سيلون في أركاديا، حيث ولد هناك طفلاً عجيباً. فقد ولد في الصباح، وعند الظهيرة عزف على القيثارة وفي المساء سرق قطيع أبوللو. وأصبح أمير المحتالين، وأذكى مخلوق في العالم، وصديقاً للماشية، ويجيء بالأحلام، ويمنح الحظ السعيد، فاستطاع أن يخدع الآلهة والرجال على السواء. وغنى قصة السلحفاة، وإليكم هذه القصة.

عندما ولد ووضع في المهد، زحف خارجاً يفتش عن قطيع أبوللو. ورأى خارج الكهف سلحفاة كبيرة، تسير ببطء فضحك هرمس وقال: «هذه أول شيء، وهي علامة للحظ السعيد! أتمنى لك يوماً طيباً. إني مسرور برؤيتك أيتها السلحفاة، من أين أتيت بهذا الدرع المرقط ليحميك، بل بهذا الكنز الجميل في هذه التلال؟. سآخذك داخل الكهف، وسوف تنبئيني بأشياء عظيمة، وسأكنّ لك أكبر احترام. ولكن لسوء حظك أنك خرجت هذا الصباح، فليس هناك مكان مثل البيت، وخارجه خطر عليك. عندما تكونين على قيد الحياة

ستبعدين السحرة، ولكن إذا فارقت الحياة فسأعلمك الغناء[1]».

وحالما أنهى كلامه، أدخل السلحفاة إلى الكهف، وقطع رأسها وأرجلها. وفرغها من اللحم، ونزع الجزء الأسفل من درعها، وفتح ثقوباً في الدائرة العلوية من الدرع، ثم ثبت قصباً إلى داخلها، وشد قطعة من رباط جلدي في الجزء الفارغ من الدرع فوق القصب ثم ثبّت قرنين في الجزء العلوي من الدرع، ووصل رأسيهما بجسر، وأخيراً ربط الجسر بسبعة أوتار من أحشاء الغنم، وشد كلاً منها أكثر من الآخر، وثبت نهاياتها في أسفل الدرع. ثم لمس (ضرب) كل وتر بدوره، فأعطى كل منها نغمة مختلفة، فقد كان يختلف كل وتر بثخانته وشده عن الآخر، وأخذ يعزف ألحاناً، وهو يغني قصائد قصيرة كلها مرح وطرب.

إلا أن تفكيره تحول الآن إلى أشياء أخرى، فوضع قيثارته الجديدة في المهد، وركض خارجاً يبحث عن شيء يأكله.

فتسلق هضبة تطل على سهل ترعى فيه ماشية الآلهة. وهبط إليها واختطف خمسين رأساً من أفضل الأبقار، وساقها إلى مكان منعزل، ثم قادها إلى الخلف، ليمحو آثار مشيته، وربط حزمة من غصينات الآس تحت قدميه حتى لايترك أثراً لها.

وفي طريقه، مرّ برجل مُسن، يزرع كرمته، فقال له: «أعتقد أيها العجوز أن هذه الكروم ستحمل لك غلة جيدة، وستصنع منها الكثير من الخمر، وذلك إذا حفظت لسانك هادئاً في رأسك، وتذكر أن تنسى ماقد رأيته». وتابع سيره، إلى أن خيّم الليل، ووصل إلى زريبة، وسواقٍ (قنوات) للشرب تتفرع من نهر (الفيوس). وهناك قدم للقطيع العلف والماء.

ثم جمع كومة من الأغصان ليضرم النار: كان هرمس أول من أشعل ناراً بحك عصوين إحداهما بالأخرى، فأخذ بعض الأخشاب الجافة، وعصا جافة بعد أن دبب طرفها، ثم فتل رأس العصا على الخشب إلى أن خرج منها بعض النشارة، وأخذت تسخن تدريجياً، وأخيراً تحولت إلى لهب. ثم وضع الأغصان في حفرة وأشعلها. ولابد أن هرمس كان سيسبب بعض المتاعب لبروميثوس، لو أنه وجد في العالم من قبل.

ثم ألقى بقرتين على الأرض، وأحنى رأسيهما إلى جنبهما، وقطع رأسيهما،

---

(1) لعل هذا أساس بعض الاحترام والحب الذي يكنه بعض العامة للسلحفاة.

وسلخهما، ونشر جلديهما على الصخر. ثم نزع أفضل الأجزاء ووخزها بسفّود، وشوى بطنيهما وظهريهما فوق النار. وأخرج اللحم ووضعه على الأحجار الملساء، وقسمه إلى اثني عشر جزءاً وقدمه قرابين للآلهة العظيمة. وعلى الرغم من رغبته الكبيرة في أن يأكل بعضاً منه، إلا أنه اكتفى بالرائحة لكونه إلهاً. وبعد ذلك أحرق الرأسين والحوافر، ولم يترك أثراً لسرقته، ثم ألقى الأغصان التي ربطها بقدميه في النهر. وعاد إلى كهفه بهدوء، حيث انسل إلى مهده، وإلى جانبه قيثارته المحبوبة.

إلا أن أمه رأته، وقالت له: «أيها الخبيث الماكر! ماذا كنت تفعل خارجاً في الليل دون حياء. أظن أن أبوللو سيطردك حالاً من هذا المكان، ويقيدك بالحبال كاللص. هل أتيت لتؤذي الآلهة والرجال!».

فأجابها هرمس: «لماذا ياأمي توبخينني وكأنني طفل صغير؟ لا، إني سأمنحك الحظ والسعادة. لماذا نعيش في هذا الكهف دون أتباع وقرابين؟. إننا آلهة، وبإمكاننا أن نصبح أغنياء كذلك، ونتمتع بحياتنا مثل الآلهة. سأكون نداً لأبوللو، أو أميراً للصوص، وسأقتحم بيته الكبير في بيثو، وسآخذ منصبه وكنوزه الأخرى، وسترين كيف سأفعل ذلك!».

وعندما أشرقت الشمس، ذهب أبوللو إلى مكان قطيعه، فوجد أن خمسين بقرة قد فقدت، فأخذ يبحث عنها. وبعد فترة، مرّ بالرجل العجوز الذي كان يعلف بهيمته، فقال له: «إني أبحث، أيها الشيخ عن خمسين بقرة من قطيعي كانت قد شردت، فهل رأيت أحداً يسوق بقراً؟».

فأجابه: «حسناً ياسيدي، من الصعب أن يخبر المرء عن كل شيء تراه عيناه، لقد مرّ مسافرون كثيرون في هذا الطريق، بعضهم صادق وبعضهم كاذب، ومن الصعب أن أميِّز بينهم، وعلى أية حال، فقد كنت أزرع كرومي طول النهار، وأظن أنني رأيت طفلاً مع بعض الأبقار، ولكني لست متأكداً، وكان معه عصا طويلة، وكان يمشي من جانب إلى آخر ويسوق القطيع إلى الوراء ورؤوسه في اتجاهه».

فتابع أبوللو طريقه إلى أن وصل إلى مكان القطيع، فقال وهو ينظر إلى المرج «إنه هنا، ولكن ماذا يمكن أن تكون تلك الآثار الأخرى، فمن غير الممكن أن تكون آثار قدمي رجل أو امرأة أو ذئب أو دب أو أسد. إنها عجيبة، وكل منها يدعو للدهشة أكثر من الآخر».

وتابع سيره إلى أن وصل إلى جبل سيلون ثم إلى الكهف، فدخله. ولكن هرمز اختبأ في مهده، متكوراً على نفسه داخل اللفائف، وبدا كأنه يغط في النوم، ولكنه كان مستيقظاً وقيثارته تحت إبطه. ونظر أبوللو إلى الأم والطفل، وفتح الصناديق الموجودة إلا أنه لم يجد شيئاً. ولكن أبوللو عرف أن الطفل هو اللص، فقال له: «اعترف أيها الطفل بسرقة البقر، وإلا سأنفيك إلى ظلمات طرطروس، حيث تبقى طفلاً إلى الأبد، وتصبح أمير الأطفال إذا رغبت في ذلك».

فأجابه هرمس: «ماهذه الكلمات الفظة التي تتلفظها؟! هل تبحث عن أبقار؟ إني لم أر شيئاً ولم أسمع عنها من قبل، ولذا فأنا لاأستطيع أن أفيدك عنها بشيء، أو أحصل على مكافأة إذا قدمت جائزة. هل أبدو كسارق أبقار؟. أنا لاأهتم إلا بالحليب والنوم والحمام الدافئ، فلا تدع أحداً يسمع بهذا النزاع، وكم ستكون دهشة الآلهة عند سماعهم بأن طفلاً وليداً قد ساق قطيع أبقار!. لقد ولدت البارحة، ولاتزال قدماي طريتان والأرض خشنة، ولكني سأقسم يميناً برأس والدي بأني لم أسرق أبقارك، إذا أردت، كما أني لاأعرف من فعل ذلك، ومهما تكن تلك الأبقار فأنا لم أر واحدة منها، وإنما سمعت باسمها فقط».

وعندما انتهى من كلامه، أخذ ينظر هنا وهناك، ويحرك حاجبيه، ثم بدأ يصفر بصوت عال، وكأن كلام أبوللو كان قصة تافهة. ولكن أبوللو ضحك بلطف، وقال: «أيها الصغير الخبيث، إنك تتكلم بمنتهى البراءة، وأظن أن لديك خبرة كبيرة في السرقة، وإني أقول لك بجرأة إنك هدمت كثيراً من البيوت ليلة أمس، ولم تترك لأصحابها غصناً يجلسون عليه، وستنزل كارثة بكثير من الرعاة في الأيام القادمة عندما تتوق لأكل اللحم. ولكن تعال الآن، فإذا كنت لاتريد أن تنام نومك الأخير في هذا المهد، يارفيق الليل، فقد أعطيتك لقب أمير اللصوص بين الآلهة الخالدة».

ثم رفعه أبوللو من ذراعيه. ولكن الطفل عطس بصوت عال فألقاه أبوللو على الأرض وقال: «لاتخف أيها الرضيع، ياابن مايا وزيوس، وأقسم بذلك البشير أني سأجد قطيعي بكل تأكيد». فقفز هرمس، ورفع غطاءه إلى أذنيه وقال: «إلى أين ستأخذني بهذه السرعة؟ هل أغضبك فقدان أبقارك هكذا؟ إني أتمنى أن تفنى جميع الأبقار في العالم، فأنا لاأعرف من سرقها، ولاأعرف حتى ماهي البقرة، لذلك دعنا نضع القضية بين يدي زيوس، فهو يحكم بيننا».

وهنا وجد هرمس أنه لاجدوى من المقاومة، فبدأ يمشي على الرمال، وتبعه أبوللو، وتسلقا قمة جبل الأولمب، حيث يحمل والدهما زيوس ميزان العدالة. وكان هناك اجتماع للآلهة الأوليمبيين في ذلك اليوم، فوقف كلاهما عند ركبتي زيوس.

فقال زيوس: «من أين أتيت تدفع أمامك هذه الغنيمة الوافرة، ياأبوللو؟ إنه طفل وليد ولكنه يمشي أمامك وكأنه رائد، فلا بد أن هناك أمراً هاماً سأقرره». فقال أبوللو: «إنها مسألة مهمة ياسيدي، رغم أنك تسر باستهزائك مني، وكأني الإله الوحيد الذي يبحث عن السلب والنهب. إنه طفل، ولص وسارق وجدته على هضبة سيلون، وإني لم أشاهد طفلاً وقحاً مثله في حياتي، فقد سرق أبقاري البارحة وساقها بعيداً إلى بيلوس، وترك آثاراً غريبة تدل على أن السير كان باتجاه مكان أبقاري، أي المكان الذي أتت منه، وقد مسح المكان كله، فلم يكن يمشي على قدميه أو يديه، ولكن على بضعة غصينات كما يبدو. وتتبعت أثره على الرمل، وعندما وصلت إلى الأرض الصلبة، وجدت عجوزاً كان قد شاهده. وبعد أن أخفى القطيع في مكان ما، عاد إلى بيته، ورقد في مهده في الكهف المظلم. وعندما وجدته، عرك عينيه وقال: «لم أر شيئاً ولم أسمع عن الأبقار، وليس هناك جدوى من تقديم مكافأة لي لأجدها». ثم قال هرمس مشيراً بإصبعه إلى أبوللو: «إني ولد صادق ياأبي ولاأستطيع أن أكذب. لقد أتى إلى كهفنا عند الشروق باحثاً عن أبقاره. ولم يأت بشهود معه، وأمرني بعنف أن أعترف أو أنه سيرميني في طرطروس، وذلك لأنه قوي، أما أنا فقد ولدت البارحة فقط، وليس من المعقول أن أكون سارق أبقار. صدقني إنني لم آخذ الأبقار إلى البيت، وإنني لم أتخط العتبة، إن الشمس هيليوس تشهد كل شيء، أما هو فلم ير ذلك. وأنا لست مذنباً كما تعلم، وأقسم ببيتك على ذلك! وإني سأعاقبه يوماً ما على اتهامه القاسي، ولكن ساعد الصغير بيننا، الآن!».

وكان يختلس النظر بطرفي عينيه، أثناء حديثه، ليرى وقع الكلام عليهم، ويرفع ثيابه بشدة إلى كتفيه. أما زيوس فضحك بصوت عال من ذلك المحتال الماكر الصغير، وقال: «فليذهب كلاكما، وأنت ياهرمس، أرشده إلى حيث خبأت الأبقار». وبهذه الكلمات أحنى رأسه، وهي إشارة ليطيعه الجميع. فقاد هرمس أبوللو إلى المكان بقرب النهر الفيوس، وأخرج الأبقار. ورأى أبوللو جلد البقرتين على الصخور فقال:

«كيف استطعت أن تسلخ بقرتين وأنت طفل وليد، أيها الخبيث الماكر؟ أظن أن الوقت لن يطول بك لتصبح لديك قوة جبارة يوماً ما»!

وأخذ أغصاناً قوية، وحاول أن يقيد هرمس، ولكن حُلَّ الوثاق، وكان هرمس يخفي القيثارة تحت إبطه، فلمحها أبوللو وهما يتعاركان. فأخذ يلاطف الطفل ويتودد إليه، فأخذ هرمس القيثارة بيده اليسرى، وداعب الأوتار بيده اليمنى فرددت نفحاتها، وسرت الموسيقى إلى روحه فضحك بصوت عال. وكان هرمس يعزف عزفاً جميلاً، وأخذ يغني بصوت عذب: فغنى قصص جميع الآلهة، وكيف تشكوا، كل في دوره، ثم كيف تلقى كل منهم نصيبه، ثم غنى قصائد (تسابيح) عن ميركوري، وهي أم الإلاهات التسع، فقال أبوللو:

«إن أغنيتك تستحق خمسين بقرة، وأعتقد أننا سنسوي نزاعنا بهدوء وسلام، ولكن أخبرني من أعطاك هذا الشيء الرائع، ومن علمك الغناء؟ فأنا لم أسمع أحداً يغني في جبل الأولمب مثل هذا الغناء ولم أشاهد مثل هذا الكنز، إن لنا أغنياتنا وعندنا مزاميرنا، ولكني لم أكن أهتم بها كثيراً. أما هذا فهو خيار بين ثلاثة أشياء مرة واحدة، المرح، أو الحب، أو النوم، فموسيقاك تحويها جميعاً. والآن استرح أيها الصبي العزيز، واستمع لكلام من يكبرك سناً. إني أعدك بشهرة واسعة لك ولأمك، وسأجعلك قائداً معروفاً بين الآلهة، وسأهبك هدايا عظيمة». ففهم هرمس مايرمي إليه أبوللو فقال:

«إنك تطرح المسائل بشكل جيد، إني لاأضّن عليك بتعليمك فني، وأنا مستعد تماماً لأفعل ذلك، وإنك ستتعلمه في هذا اليوم، وأقصد بذلك أن نصبح صديقين. إنك تعرف كل شيء، فأنت أحد أفراد الآلهة، وقد منحك زيوس رسُله، وعلمك قوانينه، ولذلك فمن السهل أن تتعلم ماترغب فيه. وبما أنك عزمت أن تعزف على القيثارة، فاقبلها هدية مني، اعزف، وغنِ واطرب، واصطحبها معك في الأعياد والرقص لتكون متعة في الليل والنهار. فمن يعزف علَيها ببراعة وحكمة يحقق كل مايبهج العقل وذلك إذا ضمها بمودة ولطف، ومن يعزف عليها بعنف فستردد نفحاتها له الحماقة والباطل، ولهذا سأعطيك هذه القيثارة ياابن زيوس النبيل وسأكون راعياً للقطيع، وإنك لن تغضب بعد ذلك، وعلى الرغم من أنك قد غُبنت في هذه (المساومة)».

ودفع هرمس القيثارة، فأخذها أبوللو، وأعطاه سوطه، وجعله راعياً للقطيع. ومنذ

ذلك الحين، أصبح هرمس أرينوس، أو صاحب الصوف، نصير وحامي الرعاة، وأصبح إله وراعي التجار ومن يعقد الصفات.

وعاد الاثنان إلى الأولمب صديقين. ولكن أبوللو قال له: «أخاف أيها الخبيث الماكر أن تسرق مني قيثارتي وقوسي أيضاً، فأقْسِمْ يميناً عظيماً بأنك لن تفعل إلا مايسرني».

فحنى هرمس رأسه، كما فعل زيوس، ووعده بألا يسرق شيئاً يخصه، وألا يدخل مملكته، وأما أبوللو فقد أقسم بأن يحب هرمس دائماً، وأن لايفضل أحداً عليه. ثم قال له:

«سأمنحك عصا الأغنياء، وهو صولجان ذهبي، يحفظك سالماً بقدر ماتقوم بأعمال طيبة. وأنا أعرف أنك تتمنى أن تتعلم فن التنبؤ ولكني لاأستطيع تعليمك إياه، رغم أنك أشرت إلى ذلك. إنني وحدي من يعلم بخطط زيوس الحكيم، وقد أقسمت يميناً أمامه بأن لاأعرفها إلى إله آخر، ولذلك سأحفظها إلى أن يأمرني بالكشف عنها. أما بالنسبة للرجال، فإن أتوا إليّ تتقدمهم الطيور المبشرة بالخير، فإني أخبرهم الحقيقة ولا أخدعهم. أما إذا تقدمت أحد الطيور التي تغرد لغواً وألحوا ليعرفوا أكثر مما تعرف الآلهة رغماً عن إرادتي، عند ذلك تصبح مهمتهم لاطائل منها، وسآخذ مامعهم من هبات. إلا أن هناك ثلاث أخوات جليلات، ذات أجنحة ويطرن كالنحل ليتغذين بالعسل. فعندما ينفخ العسل فيهن الروح، يصبحن قادرات على قول الحقيقة، أما إذا حُرمن منه فإنهن يقلن باطلاً، وتحوم إحداهن حول الأخرى وهي تئز بأجنحتها، وإني سأمنحك هذه الأخوات، فتعلم منهن، وأدخل البهجة إلى قلبك، وإن شئت فعلم الرجال ليفعلوا مثلك».

وتذكر زيوس أن هرمس كان يتقدم أبوللو وكأنه رسول، فجعله رسول ومنادي (نذير) الآلهة، وجعل له مقاماً في الأولمب، وجعله رسوله الخاص. وقد أمر أن يعود بصولجانه السحري أرواح الرجال إلى مثواها الأخير. فبلمسة منه يجعل العيون النائمة تصحو، والعيون المستيقظة تغط في النوم، وترأس جميع الألعاب ومباريات الرجال، واحتل مقاماً بلقب «هرمس في الحلبة» في مدرسة المصارعة والجمباز، وأصبح يمنح الحظ والثروة، فحيثما يجد المرء شيئاً يحبه، عليه أن يشكر هرمس وأن يدع ماعثر عليه هبة هرمس أو هرميون. كما أصبح سيد طيور الإنسان، وسيد بهائم الغابة وبهائم الحقل. ولم يعزف على القيثارة وإنما يصفر ألحانه في المصفار، الذي ينسب البعض اختراعها إليه.

ورُحِّب بأبوللو مع الخالدين، وأصبح يعزف على القيثارة ألحاناً عذبة، وتغني أثناء عزفه جميع الأنعام، بينما ترقص الإهات الحسن والفصول مع الإيقاع والشبان، وتمسك أفروديت (إلهة الحب والجمال عند الإغريق) بيد كل منها. وتشترك أيضاً أخته أرتميس في الرقص، بينما تنظر الآلهة الأخرى وتستمع.

هيرمس في معجم

الأعلام والميثولوجيا اليونانية والرومانية

هو أحد أبناء الإله (زيوس) و (مايا) ابنة الإله أطلس. وقد ولد هرمس في كهف في جبل سيلِّين في أركاديا. ومن ثم سُمي أطلانتيدس أو سيلينيوس، ولكن المؤرخ فيلوستراتوس يقول إن مكان ميلاده كان في جبال الأولمب ويقول إنه في الساعات الأولى لمولد هرمس هرب هذا من مهده ثم ذهب إلى بيريا وسرق بعض ثيران أبوللو. ولاتذكر الإلياذة ولا الأوديسية هذا الحادث، مع أنها تصف هيرمس بأنه لص حاذق. وهنالك مصادر أخرى تشير إلى حادثة السرقة هذه، ولكن تحدد السرقة في مرحلة متقدمة من مراحل حياة هذا الإله. ولكيلا يكتشفه أحد، أخذ يخفي آثار قدميه وكان يلبس صندلاً (حذاءاً خفيفاً)، ثم ساق الثيران إلى بيلوس حيث ذبح ثورين وأخفى الثيران الباقية في كهف. ونشر جلود الثورين المذبوحين على صخرة وطبخ جزءاً من لحومهما وأكله وأحرق باقي اللحوم. وفي نفس الوقت قدم الأضحيات (الذبائح)، للآلهة الاثني عشر، ولذلك أصبح يدعى مبتدع العبارة الإلهية والأضاحي (الذبائح) وبعدها رجع إلى سيلِّين حيث وجد سلحفاة على مدخل كهفه الذي يعيش فيه. فأخذ صَدَفَةَ السلحفاة ورسم عليها رسوماً، وهكذا اخترع القيثارة وريشة العازف، ويقال إن عدد أوتار القيثارة التي اخترعها ثلاثة، وبعضهم يقول إنها سبعة، وكانت الأوتار مصنوعة من أمعاء الثيران أو الغنم. وقد اكتشف أبوللو (بما لديه من قوة التنبؤ) تلك السرقة، وذهب إلى سيلين ليقاضيه أمام أمه (مايا). أظهرت (مايا) الطفل وهو في مهده وهو في منتهى البراءة. ولكَن (أبوللو) أخذ الولد إلى (زيوس) وطلب إرجاع ثيرانه. سأل زيوس هيرمس على جلية الخبَر فأنكر هرمس السرقة ولكنه عندما أدرك أن لاأحد يصدقه، أخذ أبوللو إلى كهف بيلوس وأرجع له ثيرانه. ولكن عندما سمع أبوللو صوت القيثارة سُحر بها لدرجة أنه سمح لهيرمس

أن يستبقي الثيران ولم يأخذها منه. عندها اخترع هيرمس (المزمار) وهي آلة موسيقية بدائية من آلات النفخ تتألف من سلسلة أنابيب متدرجة الطول. وهكذا تطورت الصداقة الحميمة بين الاثنين بعد أن باح هيرمس لأبوللو بجميع أسرار اختراعاته. وقد أهدى أبوللو صديقه الصغير عصا الرعي الذهبية الخاصة به وعلمه فن التنبؤ بالغيب بواسطة رمي مكعبات الزهر (النرد). ثم جعله زيوس رسوله وسفيره ورسول آلهة العالم السفلي، ولكن طبقاً لترنيمة هوميروس، نرى أن أبوللو رفض أن يعلم هيرمس فن التنبؤ بالغيب، وحوله إلى الأخوات الثلاث اللواتي يسكنَّ في بارناسوس، ولكنه وهبه المقدرة على حماية القطعان والمراعي.

إن الظاهرة الرئيسية في التقاليد عن هيرمس تدور حول كونه رسول الآلهة، وتظهره قصائد هوميروس في نفس هذه الصفة. وإن شخصيته الأصلية القديمة وهو إله الطبيعة في بالاسجيا وأركاديا بدأت تختفي بالتدريج من الأساطير، وأما كونه رسول الآلهة فامتاز بفصاحة الخطاب ومهارته في الكلام بصورة عامة، لأن الرسل هم لسان الشعب الناطق في المجتمعات والمناسبات الأخرى، وكانوا يرسلونه رسولاً في المهمات الخطيرة، ولهذا كانوا يقدمون له ألسنة الذبائح والقرابين ليأكلها. ولما كان من المفروض أن يكون الرسل رجالاً عاقلين وحكماء، لذلك كان هرمس أيضاً إله الحكمة والمهارة في جميع العلاقات الاجتماعية، وهذه الصفات كانت تشترك مع صفات أخرى، كالدهاء في الكلام والعمل حتى في الغش واليمين الكاذب، والميل للسرقة، ولكن هيرمس لم يقترف مثل هذه الأعمال إلا بمهارة ولياقة مع شيء من العظمة، وهنالك أمثلة على هذا في ترنيمة هوميروس عن هرمس.

ولما كان هرمس موهوباً وبهذه الصفات من الذكاء والحنكة اعتبر مؤلفاً ومبتدعاً لكثير من الاختراعات، وفضلاً عن اختراع القيثارة والمزمار، فإنه اعتبر أنه اخترع الأحرف الهجائية والأرقام وعلم الفلك والموسيقى وفنون القتال والجمناستيك، وزراعة شجرة الزيتون والمقاييس والأوزان، وأشياء كثيرة أخرى، وقد كان يُنْعِمُ ببعض صفاته وقواه على من يحب من بني البشر، وكل من يمتلك هذه الصفات يصبح تحتَ حمايته ويعتبره ابنه. وقد استخدمه الآلهة وخصوصاً زيوس في مختلف المهمات المذكورة في القصص القديمة. وهكذا فهو الذي قاد (بريام) إلى (أخيل) ليساعده في جلب جثة (هيكتور) (ابن بريام ملك طروادة) وهو الذي شهد (أكسيون) في الدولاب، وهو الذي قاد (هيرا) و (أفرودايت) و(أثينا) إلى باريس. وهو الذي شهد (بيروميثوسي) إلى جبل (كوكاسوس)، وهو الذي أنقذ (ديونيسوس) بعد مولده

من ألسنة اللهب، وهو الذي استلمه من يدي زيوس وحمله إلى (أتاماس)، وهو الذي باع هيرايليس إلى (أومغالي)، وهو الذي أمره زيوس ليحمل (لد) الذي كان قد تحول إلى بقرة، وكان يحرسه (أرجوس) ولكن عندما خانه هيراكس ذبح أرجوس. وفي حروب طروادة كان هيرمس إلى جانب اليونان. وإن خدماته لزيوس لم تكن محصورة بوظائف السفير والرسول بل هو سائق عربته وحامل كؤوسه، أي الساقي، وكان هو الذي يوصل الأحلام التي يرسلها زيوس للبشر ومن ثم ساد الاعتقاد أن هرمس هو الإله الذي باستطاعته أن يمتع الإنسان بنوم عميق مريح منعش أو بالعكس، وهناك وظيفة أخرى لهرمس وهو أن يوصل الموتى من العالم العلوي إلى العالم السفلي.

إن فكرة كونه رسول وسفير الآلهة وتنقله من مكان إلى مكان وإجراء المعاهدات تشير إلى أنه كان المشجع للاتصالات الاجتماعية والتجارية بين بني البشر، وأنه كان صديقاً وودوداً للإنسان. وبموجب هذه الصفة فهو الذي يحافظ على السلم، وهو إله الطرق الذي يحمي المسافرين ويعاقب كل من تسول له نفسه إيذاء المسافرين أو عدم مساعدتهم على الطرق. ولهذا كان القواد الحربيون الاثينيون عندما يبدؤون في حملة حربية يقدمون الذبائح والقرابين لهرمس، وكان هناك عدة تماثيل لهرمس موضوعة على الطرق وعلى أبواب البيوت وبوابات المدن، وهذا جعل له ألقاباً متعددة وأوصافاً كثيرة. ولما كان هرمس هو إله التجارة، ولما كانت التجارة هي مصدر من مصادر الثروة، لذلك أصبح إله الربح والثروة، خصوصاً الثروات الفجائية التي طالما تصيب الأثرياء من جراء الصفقات التجارية المربحة. وباعتباره واهباً للثروة والحظ الحسن لذلك اعتبر المسيطر على لعبة النرد (الزهر)، وكل من لعب هذه اللعبة كان يرمي ورقة زيتون على النرد، وكان يسحب هذه الورقة أولاً. ولقد لاحظنا خلال حديثنا عن هرمس أنه كان يعتبر مخترع الذبائح والقرابين، ولذلك لايعتبر ممثلاً لدور الرسول أثناء الاحتفالات والضحايا فحسب، بل هو أيضاً حامي الحيوانات التي يضحى بها، وهو الذي يزيد خصوبة وفحولة الأكباش، ولهذا السبب كان المعبود المحبوب لدى (الرعاة)، ويذكر في قصص (بان) وعرائس البحر، وهذا المظهر من مظاهر شخصية هرمس هو من بقايا الديانة الأركادية القديمة، حيث يعتبر إله الخصوبة على الأرض الذي يرسل نعمه على بني البشر، ولا تخلو أشعار هوميروس من ذكر نتف من هذه الصفات.

وهناك وظيفة أخرى لهرمس وهو كونه حامي جميع الألعاب الجنبازية (ألعاب القوى)

في بلاد اليونان ويظهر أن هذه الفكرة حديثة لأننا لانجد أي أثر لها في أشعار هوميروس، ولكن لما نجد له كثيراً من التماثيل على أبواب مراكز ألعاب القوى لذلك أصبح يعتبر هو حامي الشباب مثل هيزكوليسي وديوسيكيوري وحامي الإغريق الذين يعتبرونه المثل الأعلى ويصورونه كشاب يملك منتهى اللياقة البدنية وجسمه قد أصبح مثالياً بسبب التمارين الرياضية. ويظهر أن أثينا كانت المدينة الأولى التي عبدته باعتباره يمتلك هذه الصفات. ويظهر أن تعدد صفات هذا الإله جعل اليونان يعتقدون بتعدد الآلهة التي تحمل هذا الاسم فشيشرون يذكر خمسة، وسيرفيوس يذكر أربعة، ولكن هذه الأرقام ربما اشتملت على آلهة غريبة كات تشبه هيرمس اليوناني.

إن أقدم مركز من مراكز عبادة هرمس كانت (أركاديا) وهي مسقط رأسه، حيث بني إله لاكاون بن (بيلاجوس) أول معبد. ومن ثم انتقلت عبادته إلى أثينا، وأخيراً انتقلت إلى جميع أنحاء بلاد اليونان، ولما أتى الرومان سموه (عطارد)، وبين الأشياء التي يقدسها ربما نذكر شجرة النخيل والسلحفاة والرقم أربعة وعدة أنواع من السمك، وأما القرابين التي كانت تقدم له فهي البخور والعسل والكعك والخنازير، وبصورة خاصة الخراف الصغيرة والماعز الصغيرة.

والصفات الرئيسية لهرمس التي تميزه هي القبعة المستعملة للسفر ذات الإطار العريض التي زينت في الأزمنة المتأخرة بأجنحة صغيرة، وهذه الأجنحة أحياناً تظهر وكأنها تخرج من ضفائر شعره، إذ إن رأسه لاتغطيه القبعة تماماً. ثم هنالك العصا وهي مذكورة في الأشعار الهوميرية باسم العصا السحرية التي يقفل ويفتح بها أعين البشر. ولكن لايذكر مصدر هذه العصا من أين جاءت ولامصدر الثعابين الملتفة على العصا التي تظهر في الأزمنة المتأخرة، ولكن طبقاً لترانيم هوميروس ولأبوللو دوروس فهو قد استلم هذه العصا من (أبوللو). ويجب علينا أن نميز عَصَوَيْن اتحدتا فأصبحتا فيما بعد عصا واحدة. أولاهما عصا الرسول العادية، الثانية العصا السحرية التي يمتلك أمثالها كثير من الآلهة.

والأشرطة البيضاء التي تحيط بالعصا تحولت فيما بعد على يد الفنانين المتأخرين إلى ثعابين مع أن القدماء كانوا يعتبرون هذه الثعابين ممثلة للحكمة والأعمال البطولية والحياة والصحة وماشابه ذلك. والعصا في الأزمنة المتأخرة زينت بالأجنحة أي بزوج من الأجنحة وهي رمز إلى السرعة التي ينتقل بها الإله من مكان إلى مكان. الصندل أو الحذاء الخفيف،

وهذا الحذاء جميل وذهبي ، وكان يحمل الإله فوق الأرض والبحر بسرعة الرياح ، ولكن هوميروس لايذكر أبداً أن هذا الحذاء له أجنحة . فالفن البلاستيكي كان بحاجة إلى شيء يرمز إلى صفة من صفات هذا الحذاء وهي سرعة الحركة ، فاخترعوا الأجنحة التي وضعوها عند الكاحل أي كاحل القدم . وبالإضافة إلى هذه الصفات فقد كان هيرمس يحمل كيس نقود في يديه . هذا وقد وصلت لنا عدة صور لهذا الإله في مختلف أطوار حياته ، فضلاً عن وصفه أثناء قيامه بأعماله المختلفة ووظائفه ، ولكي نلقي بعض الأضواء على أصل وظائف هيرمس من الضروري أن ندرس الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ومراميها وأهدافها ، فالمعتقدات الدينية اليونانية هي في الحقيقة مرتبطة بشكل ما بالمصريين من فترة قديمة نسبياً ، وهكذا فإن هيرمس اليوناني يماثل ويطابق (ثوت) المصري منذ أيام أفلاطون ، ولكن الامتزاج المتبادل للفكرات الدينية للبلدين أصبح أكثر وضوحاً عندما بدأت الديانة المسيحية تزدهر ، وعندما قامت الفلسفة الوثنية بشكل الأفلاطونية الحديثة بآخر جهد مستميت للدفاع عن الوثنية ضد الديانة المسيحية . فبذلت المحاولات لإعلاء شأن حكمة المصريين القدماء ، ومزج هذه الحكمة مع أفكار وحكم اليونان ، وهكذا ، بأن تضفي الحكمة اليونانية معاني دينية عميقة سامية ، جعلتها تبدو نوعاً من الوحي الإلهي كمقابل مناسب لأفكار الديانة المسيحية ، فالإله المصري ثوت أو هيرمس كان المؤلف الحقيقي لكل الأفكار التي اكتشفها العقل البشري ، هو أب لجميع أنواع الحكمة والاختراعات والتشريعات والأديان الخ . . . وهكذا فكل مااكتشفه الإنسان وكتبه ماهو إلامن أفضال هيرمس . ولما كان هو مصدر كل المعرفة والتفكير وتجسيداً لها ، أصبح يدعى هيرمس التريسمحبسوس ، وقد ذكرت بعض الخرافات أن فيثاغورس وأفلاطون قد أخذا كل معرفتهما من هيرمس المصري الذي كان قد سجل جميع أفكاره واختراعاته على أعمدة ، وهنالك عالم إسكندري اسمه كليمنس Clemens يذكر اثنين وأربعين كتاباً من تأليف هيرمس تحتوي على زبدة وخلاصة المعرفة البشرية والحكمة والمعالجة ، في علوم الكون والفلك والجغرافيا والدين بكل أشكاله وطقوسه ، وبصورة خاصة عن الطب ، وليس لدينا أي سبب يدعونا لنشك في صحة وجود مثل هذا الكتاب أو هذه الكتب تحت اسم هيرمس في زمن كليمنس هذا ، وفي زمن الأفلاطونيين الحديثين ، انتشرت فكرة تأليف هيرمس بشكل كبير ، وطبقت على جميع أنواع الآداب ، وهي تصف جميع الفنون والعلوم عند المصريين ، وكلها تحمل اسم هيرمس ، وأضاف أنه في الزمن القديم كان جميع المؤلفين يدعون بأن كتبهم

من عمل هيرمس. وهذه الحقيقة تفسر تلك الملاحظة الغريبة التي ذكرها المؤلف لامبليكوس أن هيرمس قد ألف عشرين ألف كتاب، ولكن (مانثيو) يزيد هذا الرقم 36525 كتاباً، وهذا لامبليسكوس يذكر ملفات هيرمس في عدة مقاطع، ويقول إنها ترجمت من اللغة المصرية إلى اللغة اليونانية. ويذكر (بلوتارك) أيضاً عن مؤلفات تعزى إلى هيرمس، وكذلك (جالين) (وسيريلوس).

وإن وجود مؤلفات باسم هيرمس في القرن الثاني الميلادي أصبح أمراً لايتطرق إليه الشك، ومحتوياتها كانت ذات طبيعة دينية فلسفية، عن طبيعة الكائنات الإلهية. ومع أن هذه المؤلفات وضعت خصيصاً لسحق أفكار الديانة المسيحية إلا أننا نلاحظ أن الديانة المسيحية كان لها تأثير واضح على هذه الأفكار وعلى مؤلفها.

ولكن قضية صحة نسبة هذه الكتب والمؤلفات لهرمس (ثلاثي الرحمة) كما كانوا يدعونه لاتزال موضع بحث واختلافات، ولكن الرأي الأكثر احتمالاً هو أن هذا إنتاج من خيال الأفلاطونيين المحدثين. فبعضها يظهر أنه كتب بروح خالصة صافية، وكان من القصد منها نشر تعاليم الأفلاطونية الحديثة، وجعلها مألوفة لدى الشعب ضد قوة المسيحية النامية المتعاظمة، ولكن البعض الآخر كان يتألف من تخمينات سحرية في علم التنجيم، وهو الموضوع المحبب للأفلاطونية المحدثة، وقد وصلت إلينا عدة مؤلفات من هذا القبيل بعضها باللغة الإغريقية والآخر مترجم إلى اللغة اللاتينية، ولكن كل ماهو موجود الآن من نوعية رخيصة، ومن المحتمل أنها كتبت في أزمنة حديثة من فترات الأفلاطونية الحديثة، وقد تجسدت تلك الأفكار في كثير من الأفكار المسيحية، ويمكن أن نفترض، بشكل بدهي، أنه ليس هنالك أي مؤلف يحمل اسم هيرمس يرجع في عهده إلى فترة أقدم من القرن الثالث أو الرابع، مع أننا لانستطيع أن ننكر أن هناك بعض أفكار تعود إلى فترات أقدم من هذه قدم الأفلاطونية الحديثة نفسها. ولايسعنا إلا أن نقول إن معظم النسخ المطبوعة موجودة أو مدفونة في مكتبات خاصة مختلفة.

1 ـ هنالك كتاب عن هيرمس يدعى الأكتانيتيوس وهو أقدم كتاب بين المؤلفات التي تعزى إلى هيرمس، وقد اقتبس من الأصل اليوناني (الأكتانتيوس)، ولكن لدينا ترجمة لاتينية تعزى إلى أبوليوس، من (مادورا) ويحمل هذا التاب اسم أسكيلبيوس، ويبدو أنه كتب قبل عهد لاكتانيوس بقليل. وكان الهدف من هذا الكتاب دحض التعاليم المسيحية،

ولكن المؤلف يبدو أنه استخدم التعاليم المسيحية لمصلحته ولأغراضه الخاصة. ويبدو أن هذا الكتاب قد كتب في مصر، وربما في الإسكندريّة، وهو بشكل محاورة يتحدث بها هيرمس مع أحد تلاميذه (إسكليبيوس)، وهو مطبوع في بعض نسخ من كتب أبوليوس، وكذلك في نسخ (بيومندر) تأليف فيكنيوس وبارتيكوس، والنسخ الأخيرة فضلاً عن نسخة (البيوماندر)، تأليف (هادر)، وإن نسخة ترينيوس تحتوي عليها.

2 ـ وهناك كتاب أيضاً من المحتمل أن يكون من إنتاج نفس المؤلفين كالعمل السابق فإن إسكليبوس الذي يدعو هيرمس باسم السيد أي سيده يناقش قضايا من نفس الطبيعة مثل الإله والطبيعة والإنسان وماشابه ذلك.

3 ـ كتاب (بيامند) وهذا عمل أكبر من السابق، وهو أهم إنتاج من النوع الذي نمتلكه، فالعنوان (بيامندر) وهو (الراعي) أو (المراعي)، يبدو بأنه اختير تقليداً لمرعى هيرمس الذي يعتبر أحياناً أنه هو مؤلف (بياماندر) أو الراعي. فالعمل جميعه قد قسمه (فيمينوس) إلى أربعة عشر كتاباً، ولكن (باترينكويس) قسمه إلى عشرين كتاباً، كل كتاب بعنوان منفصل، وهو مكتوب بشكل محاورة، ولكن قد لايمكن أن يكون قد ألف قبل القرن الرابع من عصرنا. وهو يبحث في الطبيعة وخلق العالم والإله وطبيعته وصفاته، والروح البشرية والمعرفة وماشابه ذلك. وكل هذه المواضيع قد بحثت في الأفلاطونية الحديثة روحاً ونصاً، ولكن نرى أحياناً أن بعض الأفكار المسيحية والشرقية واليهودية قد مزجت فيها بشكل ملاحظ، يظهر من الحركة التوفيقية بين المعتقدات بشكل غريب، روح العصر الذي ألفت به. فقد نشرت لأول مرة في ترجمة لاتينية كتبها فيسينوس طبع عام 1471. وقد أعيد طبعها في البندقية عام 1481، 1483، 1493، 1947، وأما الأصل اليوناني ومعه ترجمة فيسينوس فقد كتب بقلم هادر تورنيبوس ـ باريس عام 1554 وبعد ذلك نشرثانية عام 1593 وبعدها نشر عام 1611 وفي كولون عام 1630 مع تعليقات بقلم هانيبال روسليوس.

4 ـ وكتاب آخر وهو عمل ذو أهمية أقل، ويحتوي على تعليمات للتأكد من وجود المرض بمساعدة الرياضيات أي علم التنجيم، فالمؤلف يحاول أن يظهر للقارئ أن طبيعة المرض، فضلاً عن طبيعة العلاج، يجب أن يتأكد منه من وضعية النجوم التي نشأ هذا المرض تحتها ويتأثر منها، وإن مادة هذا العمل تبدو أنها غير معروفة (لفيرنيكوس) (حوالي منتصف

القرن الرابع) وهذا يجعلنا نفترض أنه كتب قبل زمن (فيرنيكوس)، وقد ترجم هذا العمل إلى اللاتينية ونشر بهذه اللغة.

5 ـ وكتاب في التنجيم يبحث في طريقة تغيير طبيعة الأشياء في كل سنة، ويبدو أن النسخة الأولية كتبت باليونانية، مع أن بعضهم يقول إنها كتبت باللغة العربية، ولكن يظهر أنها كتبت في فترة متأخرة عن الكتاب المذكور في رقم 4.

6 ـ كتاب تنجيمي آخر يحتوي هذا الكتاب على مئة فرضية تنجيمية، ويقال إنها كتبت أولاً باللغة العربية، ولكن ليس لدينا الآن إلا ترجمة لاتينية طبعت مراراً وتكراراً في البندقية وبازل وأولم.

7 ـ وثمة كتاب تنجيمي آخر أيضاً، ينتمي هذا الكتاب لنفس طبقة الكتب التنجيمية، وقد كتب باللاتينية، ويظن أنه ألف في القرن الرابع، وهو مقسم إلى أربع أجزاء، مرتب حسب الأحرف الهجائية، فهو يصف علاجات سحرية طبية تتألف من عدة أنواع من الحجارة والنباتات والحيوانات، وتحت كل عنوان يذكر بعض الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية، ويعتقد أن هذا العمل قد أخذ من مصادر فارسية وعربية ومصرية.

وبعض الأعمال التي تحمل اسم هيرمس تبدو بأنها قد ألفت في القرون الوسطى.

8 ـ وكتاب في الفلسفة يبحث في حجر الفلاسفة، وقد قسم هذا العمل إلى سبعة فصول، وهي تعتبر الأختام السبعة لهيرمس ثلاثي الحكمة، وقد نشر هذا الكتاب باللغة اللاتينية بقلم د. جنوسيوس ليبزخ عام 1610 و 1613.

9 ـ ومقالة في السيميا (اسم الكتاب) مقالة عن تعليم صنع الذهب نشرت في نورنبورغ عام 1541 و 1545 وفي (استراسبورغ) عام 1566.

10 ـ وكتاب في الأفلاك عبارة عن كتيب ولكنه يعود إلى فترة أقدم من الأعمال السابقة ويعالج نفس المواضيع.

11 ـ وكتاب في الزلازل ويبحث عن الزلازل، أو بالأحرى التنبؤ بحدوث الزلازل، وهو عبارة عن كتيب، ويحتوي على ستة وستين بيتاً من الشعر سداسي التفاعيل، ويعزى أحياناً لهيرمس. وأحياناً لأورميوس.

أنوخ (هرمس) كما جاء في معجم الكتاب المقدس[1]

أنوخ بن كاين: الذي دعيت المدينة التي بناها في أرض (نود) شرقي (عدن) باسمه، دعيت (أنوخثا) حيث نرى أن بليني وبتوملي أشارا إليها باسم (هنوشي)، ويحتمل أن هذا الاسم قد اشتق من أحد الأسماء التالية:

أنوش بن جاريد وأبو ميتوشالح وهو أوسع أسرته ثقافة وكثرة أولاد. وقد قضى أكثر عمره الطاهر يعيش بإيمان، يسير مع الله متبعاً تعاليمه ويخشاه. ومكافأةً من الله على أعماله فقد أطال عمره، إذ عاش ثلاثمائة وخمساً وستين سنة، وأكثر من ذلك رفعة للجنة (بروحه وجسده) دون أن يذوق الموت. وقد كتب بعض الكتب إلا أنه لم يصلنا شيء منها، ولكن وصلنا نتف من موعظته الأخيرة «إن الله سيأتي مع عشرة آلاف من الملائكة ليقتلع ضعاف القلوب والأرواح القاسية والوفيات الكافرة وليعاقبهم على مااقترفوه».

وهذه الحكمة كانت تأتيه بالوحي المنزل.

وقد أحدث الكتاب الشرقيين من عرب وفرس ضجة حول النبي أنوخ أو إدريس كما يسمونه. وقالوا بأنه قد تلقى ثلاثين صحيفة من السماء تنزلت مع العلوم الجدية، وهناك كتاب نسب إليه (ولكنه بالتأكيد لايعود إليه)[2] ولكنه كتب من يهود قدماء قبل مجيء المسيح أو بعد المسيح مباشرة. ولمدة ألف سنة دفنت في النسيان، حتى جاء جوزيف سكيلجر منذ مائتي سنة فاكتشف جزءاً من هذا السفر.

وبغباء قيل إن هذا السفر يعود لما قبل الطوفان حيث إن الملائكة رأوا بنات من بنات آدم تزوجوهم فانجبوا العمالقة القدامى الذين ابتدعوا علم الفلك، وكثيراً من العلوم والفنون الأخرى في العالم فهل، كانت بداياتنا العلمية قد جاءت من قبل أنوخ بن يارد.

وقد وصف أنوخ بأنه تحلى بأخلاق ممتازة وعاش في خدمته للرب وكان يعمل وفق مايرشده به إيمانه.

---

(1) Dictionary of the Holy Biblle .

(2) يعني الكاتب سفر أنوخ من الأسفار الباطنية (أبو غريفا) التي كتبت من قبل اليهود أثناء السبي البابلي إلا أنهم أنكروها فيما بعد، راجع التوراة الباطنية ترجمة د. سهيل زكار وأحمد غسان سبانو.

لقد ذكر أنوخ مرتين كما لو أنه (ابن). . وقد كرم بتميز إذ إنه رفع إلى السماء دون أن يذوق الموت.

ولكونه نبياً عظيماً فقد تنبأ (بالموعظة الأخيرة) بانهيار الضعف العام لمملكة يهوذا، ونتيجة لذلك انتقلت إلينا أصول (معلوماتنا) ذات الأصل اليهودي عنه بعد أن دمرت روما مملكة يهوذا، وحل الغضب على تلك الأمة إلى النهاية، وبقي أنوخ الذي كتب له البقاء بشكل دائم وأكبر من الطوفان.

غراميات هرمس: كما جاءت في موسوعة لاروس لميثولوجيا العالم:

نسب إلى هذا الإله مغامرات حب عديدة، فقد أنجب ولداً من (شيون) دعي (أنتوليكوس) أظهر ميلاً متميزاً لسرقة أي شيء يريده دون أن يكتشف ذلك. واشترك هرمس في بعثة (أركومانوس) وخدع (أنتوليكوس) ابنة (أنتيكليا) بأن جمعها مع (سيسيلون)، في الوقت ذاته الذي زوجها فيه إلى (لارتيس). وهذا هو السبب في أن (أوليس) الابن الشرعي لـ (أنتيكليا) و (ليرليس) كان يعتبر أحياناً ابن (سيسيلون) الذي عرف أيضاً بحيله الماكرة.

واعتقد في أثينا أن (هرمس) قد أحب (هيرس) إحدى بنات (سيكرويس)، وقد أنجبت له البطل (سيفالوس)، كما قيل بأنه أنجب من (أكليروس) وهي ابنة أخرى لـ (سيكرويس) ولدا سمي (سيراخ) وهو أول كاهن ورسول لـ (أليسيس)، وكان نفس الموضوع أيضاً مرتعاً لمغامرة أخرى اشترك فيها (هرمس) مع (دينيفرا) الذي يبدو أيضاً أنه اسم لقب شعائري (بيرسيفون). وقد ظهر عند ولادة البطل الذي سمي باسمه (إليسيوس)، كما ذكر بينلوب بتعليق غامض بأن هذا الأخير أب سلالة (بان) الذي أنجبه من (بينيلوب)، وذلك عند خيانتها لـ (أوديسيوس) أو قبل زواجها منه.

لقد كان هرمس دائماً يؤول بكل بساطة الإرادة الإلهية، فمثلاً منح الأسلحة للأبطال عندما أعطى (بيرسوس) خوذة الجحيم، وأعطى فرينكوس وهيلي الكبش صاحب الصوف الذهبي ليحملهما في الجو. وكلفه زيوس بقتل (أركو) سجان (أيو) ومرافقة الإلاهات الثلاث إلى مسابقة الجمال على جبل (إيدو) وفوق ذلك، فقد كان زيوس ـ ممنوناً منه لانتصاره على (إيفيوس) وعزا (إفيس) حريته إليه.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر العربية

1- الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني / دار المثنى بغداد
2- آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني / دار صادر بيروت
3- آثار الدول في التاريخ للقرماني / عالم الكتب بيروت
4- الأخبار الطوال للدينوري / تحقيق عامر، دار المثنى بغداد
5- الأدب اليوناني والأدب الهليني محمد غلاب / ط 1 مصر
6- الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير د. رمزي نعناعة / ط1 دمشق 1970
7- أضواء على مسلك التوحيد الدرزية د. نسيب مكارم / دار صادر بيروت
8- إلياذة هوميروس ترجمة عنبرة الخالدي / طبعة بيروت
9- الإنجيل
10- الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل للعليمي / طبعة عمان الأردن
11- الإكليل للهمداني/ تحقيق الأكوع بغداد 1977
12- البداية والنهاية لابن الأثير/ مكتبة المعارف بيروت 1977
13- بين التاريخ والآثار عبد القدوس الأنصاري بيروت 1969
14- تاريخ ابن خلدون ابن خلدون / طبعة بيروت 1972
15- تاريخ الحكماء للقفطي / دار الآثار بيروت
16 تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس للديار بكري / طبعة بيروت
17- تاريخ الطب د. شوكت الشطي/ دمشق 1956
18- تاريخ دمشق لابن عساكر/ مخطوط بالظاهرية
19- تاريخ الرسل والملوك للطبري/ دار المعارف مصر

20- تاريخ سورية: للمطران يوسف الدبس/ طبعة بيروت المصورة
21- تاريخ لبنان: الأب لامارتين اليسوعي ترجمة: الشرتوني بيروت 1889
22- تاريخ مختصر الدول: لابن العبري/ المطبعة الكاثوليكية بيروت
23- تاريخ اليعقوبي: أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب/ بيروت 1960
24- تفسير القرآن الجليل: للنسفي/ المكتبة الأموية بيروت ـ دمشق
25- التفسير الكبير: للفخر الرازي/ ط2 دار الكتب طهران
26- التوراة
27- توراة البحر الميت: ترجمة: د. سهيل زكار، أحمد غسان سبانو / المركز الجغرافي الفلسطيني 1982
28- جامع البيان في تفسير القرآن: ابن جرير الطبري/ دار المعرفة بيروت 1978
29- دائرة معارف القرن العشرين: محمد فريد وجدي/ طبعة بيروت
30- دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة العربية/ دار المعرفة بيروت
31- ديموقريطش فيلسوف الذرة: د. علي سامي النشار/ طبعة الإسكندرية
32- رجال الكتاب المقدس: للقس إلياس مقار/ طبعة القاهرة
33- رسائل إخوان الصفا: إخوان الصفا/ دار صادر بيروت
34- طبقات الأطباء والحكماء: لابن جلجل/ المعهد الفرنسي بالقاهرة 1955
35- طبقات الأمم: لابن صاعد الأندلسي/ بيروت 1912
36- عبقرية الحضارة العربية: ترجمة: عبد الكريم محفوض/ وزارة الثقافة بدمشق
37- في ظلال القرآن: سيد قطب / طبعة دار الشروق بيروت 1956
38- قاموس المنجد: قسم الأعلام/ المطبعة اليسوعية بيروت
39-قاموس الكتاب المقدس: لجنة مختصة/ طبعة بيروت 1971
40- قصص الأنبياء: لابن كثير الدمشقي/ طبعة الإسكندرية 1981
41- القرآن الكريم
42- كتاب التيجان في ملوك حمير: وهب بن مُنية/ مركز الدراسات اليمنية 1347هـ
43- كتاب زجر النفس: لهرمس الحكيم/ تحقيق: فيلمون الكاتب بيروت 1903

44- كتاب السبع كواكب السيارة — لهرمس الحكيم

45- كتاب الفهرست — لابن النديم/ طبعة مصر

46- كتاب المعارف — لابن قتيبة الدينوري/ تحقيق : الصاوي مصر 1934

47- الكامل في التاريخ — لابن الأثير/ دار الفكر بيروت1978

48- كشف الظنون من أسامي الكتب والفنون — حاجي خليفة/ طبعة المثنى بغداد 1941

49- مختار الحكم ومحاسن الكلم — المبشر بن فاتك/ تحقيق : البدوي بيروت 1981

50- المختصر في أخبار البشر — لأبي الفداء/ طبعة بيروت المصورة

51- مروج الذهب — للمسعودي/ تحقيق : عبد الحميد

52- مع الأنبياء في القرآن — عفيف طبارة / بيروت 1979

53- الملل والنحل — للشهرستاني/ تحقيق : محمد طبعة القاهرة

54- ملوك حمير وأقيال اليمن — نشوان الحِمْيَري/ تحقيق : الجرافي المؤيد، دار العودة بيروت

55- الموسوعة العربية — إلبرت الريحاني/ بيروت 1975

56- الموسوعة العربية الميسرة — بإشراف محمد شفيق غربال/ مصر 1965

المصادر الأجنبية

1- Encyclopedia Americana — New York

2- Encyclopedia Britanica — London

3- Gode, Heroes,and men of Ancient Greece W.H.D. Rouse, New American Library — New York

4- Greek & Roman Biography & Mythology. By Smith — London

5- Dictionary of the Holy Biblle , Brown — London

6- Larousse word mythology paul HamlyN — London

7- Dictionary of Classical Mythology J.E. Zimmer man — U.S.A